

رحلة الحوف دحة الحوف

خسف ورجف أسفل سافلين

رواية

ل عزوز شخمان

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز استخدام أو تبادل هذا الكتاب جزئياً أو كلياً بطريقة غير شرعية سواء من خلال إتاحتها للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن خطي مسبق من الكاتب أو الناشر.

إلى ساكنة الجوف وما تبقى من كينونات السطح

كادت الرواية أن تكون واقعية لولا وقوعها في عالم موازي.

لكن الرحلة واقعية

جدول المحتويات

1	على عتبة الخروج
33	بهلوان الكراج
72	الجوف
82	ناموس الأزمنة
104	المؤامرة وأخواتها
118	المهمة الأخيرة
127	معسكرات المدينة الفاضلة

تمهيد

الثالثة ما بعد منتصف الليل (دائما وابدأ) حسب التوقيت المعياري
الموازي والمتقاطع مع تفاهمات الأكوان...

داخل واحدة من المنشآت تحت-أرضية الهائلة التي باتت تحتكرها
المقاولة عبر-الكونية -زيتا- المهيمنة على شؤون الأكوان المتوازية
بالأرضيين السبع كانت ملايين الجداجد والعناكب والجرذان تتقافز في
تهافت متسارع.. فيما قطعان الخراف و"الماعز الأليف" مطأطئة
الرؤوس وسط بقية الخلائق والكينونات المتحولة والغامضة الأخرى التي

كانت تواصل صياحها وسط هذا المهرجان الجهنمي من الأصوات المتوسلة اليائسة... وكل كان يرثي مصيره في معسكر الحشر الرهيب.

كنت أعتقد -قبل أن افتح عيني للمرة الأخيرة- أنني من القلة التي أفلتت من كمامة الأخطبوط لذلك لم أشعر بالهلع عندما تفاجأت بنفسي محشورا بين كل هذه الصفوف مرتديا -مثلها- نفس الزي الرسمي الموحد. غير أنني أدركت كم هو الوقت آخذ في النفاذ بينما شبكة المتربصين والمطاردين آخذة في التوسع ودائرة الحصار ممعنة في التقلص لتتقلص معها آخر فرص النجاة. ظلت مشاعر الرفض والمقاومة متأججة في أعماقي رغم انقطاع التواصل بيني وبين تلك "البقية" من كينونات السطح. وبينما كنت أتساءل عن مصيري الغامض وسط هذا الحشد الجنائزي المهيب كان ثمة خدر مباحث يتسرب إلى ذهني ويواصل توغله في كياني وأنا أواصل توغلي في سراديب الدوامة الجسرية الملغزة. كانت تلك واحدة من علامات عبوري إلى ملكوت الجوف.

فهل كان لا بد من اجتياز آخر عتبات "المابين بين" البعدية على تخوم الزمكان لأتمكن أخيرا من كشف خبايا "العهد الجديد" المتربص... والزاحف نحو السطح ومعه أسرار مسوخ آخر الزمان؟

عهد الأخطبوط زيتا

ما من دول صغرى أو كبرى في ذلك العهد الجديد. ولا ثمة سيادة أو حدود! ذابت الهويات والأعراق وامتزجت الأذواق اندمج الكل في بوتقة واحدة تحت رحمة السلطة الخفية والناعمة للمقاولة عبر-الكونية "زيتا" التي مدت أذرعها وخرائطيمها الأخطبوطية في كل بقاع السطح والجوف! وأوشك النظام السياسي للمرحلة على الاكتمال لترسيخ القيم الكونية لتلك المدينة الأخطبوطية الشيطانية الفاضلة.

خلت ساحة السيرك إلا من تنظيمين عتيدين يمرحان ويتناوبان ويتقاسمان كل شيء.. الأول هو تحالف الحركات الديموقراطية التوتاليتارية البورجوازية الدستورية البراغماتية الليبرالية الأوليغارشية الميكيفيلية الشيوقراطية الجمهورية النخبوية السايكوباتية اليمينية الانتهازية المحافظة. أما الثاني فلم يكن سوى غريمه وقسيمه في نهب الثروات وتأجيج الثورات وهو تكتل الحركات الإصلاحية التقدمية الاشتراكية الإنفصامية الشيوعية العلمانية الديماغوجية الشعبوية البروليتارية السوسيوباتية اليسارية الوصلية. هكذا فتحت عيني وسط المدرجات الزاهية لأفاجأ بأن الصفوف الأمامية تحتكرها النخبة من حاملي الأقنعة والمظاهر الإبليسية الرسمية تليها طبقة الكلاب الضالة المتلهفة والضباع المتهافتة المكشرة ومن ورائهما مباشرة طابور البهائم

البقرية المهجنة والحمير الناهقة والبغال الرافسة أما الصفوف الخلفية فكانت مخصصة كالعادة لقطعان الماشية "التي أتلفت مشيتها" من خرفان ونعاج و"ماعز أليف" بينما كنت أجلس وسط أسراب الصراصير المتحولة من أمثالي. كنا قد تناولنا حصتنا من "شريحة" الغيبوبة "الإستمولوجية" منذ مدة.. مستمتعين بفقرات بهلوانية من مهرجي سيرك آخر الزمان قبيل الجائحة التي كانت تنذر بالخراب الوشيك!



علي عتبة الخروج

ولجت "المهبط" الرابط بين الطبقات السبع للكراج وكبست زر أحد الأرقام دون تركيز فقد أصبح عقلي منهمكا في معالجة آلاف الصور والوقائع والرؤى المختلطة نتيجة قراءتي المتواصلة لكتاب عجيب سقط في يدي صدفة ويحكي عن رحلة حقيقية إلى "الأرض المجوفة"! هكذا مارس الكتاب الغامض استحواده الكلي على كياني وأصبح يرافقتني في صحوي ومنامي وصرت أعيش وكأنني جزء لا يتجزأ من عالمه... لم أعد أدري من أنا أصلا ولا أين أنا وسط هذا الخضم! مرة أجدني متوغلا داخل إحدى الفصول متقمصا شخصية من شخصياته ومرة أخرى يتحول المرأب إلى جغرافية تضاريسية عجائبية متماهية مع جوف الأرض بطبقاتها السبع وأنا فيها إما ضحية من الضحايا أو مجرد سائح متجول وشاهد عيان. ثم إذا بي أرى نفسي في الحلم واحدا من مخلوقات الجوف أدب مع ديبه ودوابه وأسعى ضمن سيرورة أحداثه بانسيابية وشفافية تضاهي الواقع. فلا أكاد أميز بين واقع أو خيال... بين سطح أو جوف!

فأى سر يخفيه حقا؟ وأية أغاز يحتويها وينطوي عليها؟ وأي قدر هذا الذي كان يترصدني ويدفعني لاقتحام هذا النوع من البوابات البرزخية المجهولة؟ كان عقلي منشغلا في فك هذه الشيفرة المستعصية بينما أنا أتقل بين طبقات وأنفاق الكراج في مراسيم وداعية مؤثرة.. في يومي الأخير هنا كأجير رغم أنني لم أقض فيه سوى أسبوع واحد من العمل. ومثلما كان الكتاب سببا في خروجي السريع من العمل كان أيضا سببا مباشرا لدخولي عالم جوف الأرض! هل يعقل هذا؟ أنا نفسي لم أكن لأصدق لو لم أكن أنا المعني بالأمر! ما لغز الكتاب يا ترى؟ وما طبيعة البراهين والوقائع الغامضة التي تنطوي عليه مضامينه؟ ولماذا يبدو لي من فصوله الأولى أبعد من أن يكون مجرد نتاج خيال خصب وقدرات ذهنية روائية خارقة لشخص موهوب واستثنائي؟ ما دقة وخطورة ما يكمن في باطنه من أسرار؟ تلك التي لازالت غائبة أو مغيبة عن إدراك البشرية المتثابرة فوق السطح؟

واصلت جولتي الوداعية للعالم الجوفي (للكراج) وذهني مكتظ بكل تلك التساؤلات وغيرها حتى بلغت الطبقة السفلية السابعة دون أن أتعبه للأمر! يا للهول! هل تراني خرقت المحذور؟ إنني الآن على عتبة أسفل سافلين. أخيرا بلغت القعر.. فنحو أي نوع من الجحيم أنا مشرف يا ترى؟ جحيم دانتي أليغييري؟ هنري باربوس؟ إرنستو ساباتو؟ أم دان براون؟ لا أستطيع الإختيار ولا أجرؤ على مجرد التفكير فيما ينتظرنني! أخيرا

أمسيت في مواجهة أسوء مخاوفي! دون شك هنالك ما وراء تلك البوابات
الخفية يكمن الحد الفاصل ما بين الواقع والخيال.. ما بين المعلوم
والمجهول.. الأنا والظلال الأخرى المتشاكسة في باطن الأنا.. هنا حيث
يلتوي الماضي والحاضر على بعضهما البعض فيما يشبه صراع الأفاعي
القاتل.. إنهما يلتقيان دفعة واحدة ويختلطان ويتداخلان ثم ينقض
أحدهما على الآخر في اشتباك ضار بلا هوادة.. وأنا وسطهما مثل تلك
الحشائش الرخوة التي تنسحق بصمت تحت رحمة رفسات الثيران
المتناطحة... مرة أتلوى حيرة وألما كلما التويا ومرة أنزف كمدا كلما
تلادغا؟ يا للهول! ليتني أغالب هول اللحظة بأقل الخسائر الممكنة
عساني أنفرغ لتصفح ما تبقى من فصول الكتاب المحيرا!

أ

ثمة أرض مجهولة من الأرضين في قاع أسفل "سافلين" قضيت بها مدة أعجز عن تحديدها بمقاييس الزمن المعتاد. ولو أني أخالها كالسنوات الشداد العجاف. جرفتني رياحها وأرواحها في عمق المتاهة وألقت بي وسط الكينونات المختلفة من ظلال وكائنات لا تسكن سوى في المرايا العاكسة للحياة المفترى عليها. اخترقت مرايا أخرى معاكسة.. ثم توغلت في المنافي والفيافي. سابقت خلالها أفكارى فبارزتني هواجسي وخاصمت مشاعري فطاوعتني لواعجي ولما قارعت مبادئ انشطرت عني أجزاء من كينونتي راكضة بوجودها الشفاف صوب السرايب والتجاويف المنحدرة نحو القاع. وفي أشد المواقف وحشة ورهبة واجهت أهوال نفسي وعندها التقت كهولتي بطفولتي وتسامرت مع شبابي ثم هبوا نحوي متأمرين متشاجرين وكنت الشاهد الوحيد. كانت تتراءى لي كأنها الحاضر المتجمد والممتد إلى ما لا نهاية والواقع الأكثر سطوعا من شمسهِ المشرقة. أما شمس الجوف فلم تكن سوى قناديل خافتة موغلة في الغموض مكنتني من تفحص عري المولود الذي صرته وسط المخلوقات الشفافة التي كشفت لي بعضا من أسرارها قبل أن تمهد لي سبيلا للعودة صوب نفق الخروج.

أعترف بأنني كنت في غفلة.. اعتقدتها غفوة.. ولما فتحت عيني وحاولت النهوض لم أستطع فدخلت في نومة جديدة لا أدري كم طالت. ثم فتحت عيني مرة أخرى لأجد نفسي شخصا آخر منفيا في حياة أخرى عاجزا عن كل حركة أو تفكير أو نوم. كانت حياة أشبه بالغيوبة. لما استيقظت منها أخيرا أدركت أنني استرجعت وعيي السابق كاملا ومعه وعي جديد.. فخلتها يقظتي الكبرى! كل شيء بدا لي مختلفا هذه المرة. الناس والواقع والعالم بكل ما يحتويه. استنشقت هواء جديدا محملا بالوعي الجديد وبأحاسيس مثيرة. لقد أصبحت أرى الأشياء بصورة مختلفة كما لم أكن أراها من قبل بل لم أكن أتصور أن ذلك قد يحصل معي. أدركت -بشكل ما- أنني أصبحت مختلفا عما كنته في السابق فأيقنت ألا رجوع إلى الوراء ولا جدوى من تفكيك خيوط الأزمان المتشابكة في ذاكرتي ولا في قلب المواجه الراكدة في وجداني. ما صرت أراه وأستوعبه الآن لم يعد لي الحق في تجاهله أو مواصلة نكرانه. أدركت أيضا أن الغيبوبة دامت لسنوات طويلة وأن الصحة جاءت متأخرة وربما لن تدوم طويلا. لكنها على الأقل أصبحت قائمة.. ومن خلالها طفوت من جديد لأقول كلمتي الأخيرة. هذا كل ما تبقى لي من وجودي.. وما حملته معي من رحلتي من هنالك!

ب

في واحدة من مراحل طفولتي الهائجة كنت دائم التفكير والبحث داخل شرنقة الخيال عن سرداب سري يقود إلى عالم عجائبي في جوف الأرض بعدما تهيأ لي من خلال إحساس فطري متجذر أن العالم الخارجي -الذي لم أكن قد اختبرته بعد- ليس أكثر من منظومة متكثلة وغامضة تديرها جماعة على شكل "مقاولة" يتحكم فيها أشخاص مجهولون ربما هم أقرباء للجن أو حلفاء للشياطين. كانوا هم المسيطرين بفضل القوى الخارقة التي يمتلكونها. دفعني خيالي الخصب والناشئ إلى اعتبار انزواءهم في الخفاء واختباءهم من وراء الستار كأسلوب حياة يضاعف من قوتهم وخطورتهم. كنت أستبعد أن يكونوا آدميين بل مزيجا من المخلوقات مثل الأخطبوط ذي السبعة رؤوس والغيلان والسعالى والقطرب والسحالي العملاقة وأشباه الحشرات العملاقة وكل ما يخطر أو لا يخطر على بال من وحوش وزواحف سفلية. كان يتهيأ لي أنهم يكمنون في السرايب الجوفية تحت الأرض عن قصد ويتحينون الفرصة للطفو إلى السطح واجتياح الأرض بمن عليها. ومن خلال سرايب أحلامي كنت أراهم يهيؤون أقفاصا حديدية بلا حصر يحتجزون فيها كثيرا من الخلائق. وكان يتراءى لي في أحلامي أن معظم الضحايا المختطفين من الأطفال الصغار والبسطاء من الناس المفرطين في طيبوبتهم مثل

بعض سكان حارتي. ثم بدأت أعتقد مع بداية احتكاكي بالعالم الخارجي أنني لابد أن أصادف أحدهم يوما ما متخفيا بهيئة آدمية.

لا أتذكر كيف تشكلت لدي تلك القناعة الغامضة آنذاك ما كنت أدركه على وجه اليقين أن أشرس معاركي وأعقد مشاكلي ستكون مرتبطة بهؤلاء وأولئك. لهذا نشأت وفي قرارة نفسي توجس غير مفهوم من كل ما يرتبط بثلاثية السلطة والمال والأعمال الماكرة مثل السحر والخداع والدجل باعتبارها أهم العوامل التي ستقود لذلك التحالف الشيطاني الذي سيدمر العالم يوما ما! لم يكن دليلي على ذلك سوى خيالي الجامح اللامحدود الذي كانت تؤثته مجموعة من الرؤى ظلت تراودني في فترات متقطعة من طفولتي. غير أن دخولي غمار الحياة الواقعية وانشغالي بالدراسة ضمن المنظومة التعليمية والأكاديمية "الممنهجة" خفف تدريجيا من حدة مخاوفي وجعلني أكاد أنسى إحساسي الفطري الأصلي وتوجساتي الغامضة.

ت

أجل كنت في غفلة أعقبته نومة ثم انتابتنى غيبوبة. بعدها جاءت الصحوه.. كانت شيئاً مختلفاً عما قبلها. شئ انساب من العمق في خفاء.. كالسر أو النية.. بين الظن والإعتقاد بين الشك والمكر والمكيدة. شئ معقد متشابك. تعقيداته في تجويفاته وليس في الأفكار والمشاعر فحسب. شئ بلا سطح ولا مظاهر. ليست له خريطة أو بوصلة لكن ثمة مخلوقات ذات القدرات الخاصة على دراية بمدخله ومغاوره منها أنواع من الصراصير النطاطة والجرذان والزواحف والافاعي ومنها أيضاً أرواح وظلال ومردة وسحرة من أبالسة الثقيلين وكثيرا من الكينونات المجهولة.

كان أقرب نموذج للعالم الداخلي المجوف هو نفسه الكراج الذي اشتغلت فيه لمدة وجيزة أثناء وصولي إلى الشاطئ الغربي الأقصى قبل أن أطرده منه سريعا بحجة مخالفة القواعد واقتراف جملة من الأخطاء المهنية الجسيمة من قبيل مقاومة محاولات بعض الزبائن المتنمرين "التغوط" على رأسي بذريعة أن الزبون دائما على صواب وما على ممتهني خدمة الزبائن (من أمثالي) إلا الهش والبش في وجوههم والقيام بحركات بهلوانية سخيفة لنيل رضاهم مهما كانت الظروف والمواقف.. ومع الأسف لم اكن من هذا الصنف. أما الخطأ الثاني فقد تمثل في رفضي المتكرر ارتداء اللباس الموحد -في الحقيقة كنت أنزعه بين الفينة

والأخرى-إظهارا لتمردى على أسلوب النمطية المهنية حتى فى اللباس.
ثم السبب الثالث وربما كان الأهم إصرارى على حمل الكتب معى الى
العمل وقراءتها كلما استطعت الى ذلك سبيلا! والواقع أن أغلب من
كنت أصادفهم كانوا ينظرون الى نظرات شك وريبة وكأننى أحمل
مسدسا أو إحدى المواد الممنوعة وقد نصحنى أحد زملائى قائلا:

**لم لا تستعمل الأجهزة الإلكترونية الذكية كالهاتف المحمول
فهى أقل لفتا للانتباه!**

أجبتة ببرود:

**أمثالى لا تلائمهم القراءة سوى فى الكتب الورقية الصلبة.
وكما ترى أنا أنتمى إلى النسخة القديمة من الجيل البشرى
الآيل إلى الانقراض!**

مهما يكن من أمر فاليوم هو يومى الأخير فى كراج شارع القيامة
بالعاصمة وهذا فى حد ذاته هو الامر السار الوحيد الذى حظيت به منذ
قدومى.. حيث سيكون لى مطلق الحرية فى التجول فى كل طبقة من
طبقاته السبع دون حسيب ولا رقيب. سأتصفح ما شئت من فصول
الكتاب متى شئت وأينما شئت. بل وبإمكانى نزع الزيتى الموحد الذى
يميز المستخدم عن باقى البشر. كل هذه المكتسبات حظيت بها دفعة

واحدة لسبب وحيد وهو أنه كان آخر يوم لي في هذا العالم الجوفي المثير.
كنت ما أزال أستحضر ما قاله لي "غريمي" "المندرج" بنبذة أسف
احترافية لا تخلو من تشف:

**يؤسفني إخبارك بأن الإدارة المركزية للكراج قد قررت طردك
من العمل بسبب إمعانك في مخالفة اللوائح...**

أجبتة على الفور:

لم لا تحتفظ بأسفك لنفسك وتكون أكثر صراحة! لم لا تقول لي
مثلا أنه من دواعي سرورك؟ فلست أرى ما الذي قد يدعوك
إلى الأسف؟

نظر الي بدهشة قريبة من البلاهة وقال بصوت متردد:

**صدقني أنا فعلا حزين لأجلك. فأنا مثلك جئت مهاجرا الى
أرض الأحلام من بلد بلا أحلام. لكنني اندمجت سريعا مع
المنظومة واستوعبت كيفية عملها وارتقيت في دواليبها. هذا
هو الفرق الوحيد بيني وبينك. فلا تستسلم. يوما ما
ستستوعب بدورك كل شيء وستدخل في "السيستم" مثلي
وستنجح.**

نظرت إليه مليا لكن بريية وأنا أقلب في ذهني مضمون عباراته التي قد تكون نابغة من الجوف هذه المرة. قدرت فيه صراحته وشكرته عليها. وعندما طال صمتي نظر الي نظرة ماكرة قائلا:

*لا تنس بأنه يومك الأخير معنا. يمكنك العمل بحرية ولن
اضايك فيما تبقى لك من ساعات معنا شرط أن تظل بعيدا
عن عيون نظرات كاميرات المراقبة... حذاري.. إنها ترى كل
شيء؟*

أجبتة في سري..

"إذا كنت تقصد عين الدجال فاطمئن... اليوم ستكون لي معها جولة
أخيرة وستكون دون شك شديدة علي وعلى أعدائي.

ث

في حياة سابقة على السطح تعودت على قيادة أفكاري ومشاعري
بالأسلوب الذي يقود به الراعي أغنامه. كنت أخرجها دائما من حظيرتها
قبل كل طلوع شمس حتى قبل أن أستيقظ تماما من نومي. مضحيا
ببقايا أحلامي فأهب مهرولا صوب المراعي تتبعني قطعاني.. كنت غالبا
ما أشرد في سيرتي فأمضي قاطعا تلالا ووديانا ومرتفعات مجهولة من
ذاكرتي لأستقر في مساحة معينة تختارها أغنامي بمزاجها وتبدأ في
الرعي.. وكنت دائما ما أحمل معي عصاي وأهش بها على هواجسي.
لكن عصاي لم تكن شبيهة بعصا موسى ولا حتى قريبة منها! بل لم يكن
يميزها أي شيء عن عصا أي راع سوى كونها كانت لا مرئية تظهر
وتختفي. لكن أفكاري كانت تراها دائما وتتفاعل مع حركاتها وسكناتها..
فتأتمر بأوامرها وتنتهي بنواهيها. وذات يوم استيقظت متأخرا على غير
العادة عن الموعد الصباحي المعتاد فقفزت من فراشي فزعا بينما ضج
رأسي بصراخ الأغنام المتضادة من داخل الحظيرة. كانت لحظة غريبة
وفارقة كأنها بداية تمرد أو ثورة يتهاى لها هذا القطيع من الأفكار الماشية.
كانت صدمتي هائلة وتساؤلاني محيرة ومشاعري تائهة ومحتارة! كيف
يعقل أن يخرج قطيع الأغنام عن النظام المرسوم الذي عودته عليه كل
هذه السنين؟ وماذا عن عصاي؟ أما عاد لها ما يكفي من سلطة وهيبة؟
تناولت العصا بسرعة واخذت أهش بها صارخا على قطيع الأفكار أحثه

حثا على مغادرة الحظيرة صوب المراعي. بدأ القطيع يتحرك بصعوبة بالغة ولكن بغير انتظام وعلى غير هدى. وما إن بلغنا أولى التلال المؤدية الى الساحات المجهولة حتى بدأ الانفلات يدب في الصفوف.. قطعانا تتجه يمينا.. وأفكارا تقفز نحو اليسار. كانت حملان الهواجس ونعاجها هي الأقل فوضى والأشد حيرة وترددا أما أكبشها وأقرنها فكانت تنطلق بتحد وحرية داعية بقية القطيع لإعلان التمرد الصريح والانتشار في الفضاء الرحيب. بعد فترة من الإرتباك والتردد قلت مع نفسي...لم علي أن أقمع هذا الحراك العفوي.. فأنا لست متأكدا من دواعيه وأسبابه! لم لا اتركهم يتفرقون ويأخذون حريتهم في الحركة والمبادرة؟ ولماذا كل هذه الخشية والتوجس و"الديكتاتورية"؟ أليسوا في الأخير مجرد قطيع منسجم من الأفكار قد ألف بعضهم بعضا.. فقد تآلفوا وتناسلوا وتوارثوا فيما بينهم طباعهم وصفاتهم الجنائية المميزة؟ فلأدعهم وشأنهم فهم لن يتجاوزوا حدود المراعي فيما بين منحدرات الوادي ومرتفعات الهضاب والجبال إلى اقصى حدود السهول الفسيحة الممتدة نحو البحر.. ومهما غابوا واختفوا عن ناظري طوال الوقت فلا بد لهم من عودة في المساء! عندما بلغت هذه النقطة من التدبر واكتملت لدي القناعة قمت صوب العصا وحاولت تكسيورها والتخلص منها.. لكنها تلاشت عن ناظري -كأنها فهمت قصدي- ثم ظهرت فجأة بعيدا عن متناولي على ارتفاع بضعة أقدام من فوق رأسي. كانت على هيئة أخرى لم أعدها عليها من قبل.

تهيأ لي أنها قد أصبح لها جناحان ترفرف بهما ثم التفتت إلي وكأنها مالك
الحزين وبادرتني مقهقه..

**أخيرا استوعبت الدرس أيها الراعي العنيد! لقد انتهت
مهمتك عند هذا الحد! ليس عليك بعد الآن أن تستيقظ كل
صباح مفتتحا نهارك بالهرولة نحو المراعي المجهولة أو تعود
عند كل غروب خائر القوى. بعد اليوم لن تكون لك أو لأغنامك
حاجة إلي أو لسلطتي وتوجيهي!**

كانت هذه آخر كلمات العصا قبل أن ترتفع محلقة وتختفي في الأفق
متوهجة بخيوط الشمس التي اخترقت عيناى وحالت بيني وبين متابعة
مشهد الوداع.

حينما حولت نظراتي صوب المراعي الممتدة قدامي ومن حولي كان
قطيع الأفكار يواصل انطلاقه الدؤوب في كل اتجاه.. لكن حملان الهواجس
صارت أقل حيرة والنعاج أقل ريبة والأكباش أقل حدة وصرت ممزقا بين
الغبطة والخشية... فلقد أدركت أن ما آلت اليه الأمور سوف لن يمر دون
عواقب وأنني أول من سيؤدي الثمن عاجلا أم آجلا. لم تكن هذه هي
المررة الأولى.

النط أو السير قهقرى.

ج

سمعت طرقا بالباب كانت الساعة تشير إلى الثالثة ما بعد منتصف الليل. كنت غارقا كعادتي في بحر ضبابي من التأمّلات والهواجس المتلاطمة فقامت مترددا مستغربا عمن يكون الطارق في هذا التوقيت المريب. أرهفت سمعي قليلا ثم استجمعت عزيمتي وقررت فتح الباب. أطلت برأسي مستطلعا فلم أصادف أحدا في الوهلة الأولى. انتظرت بضعة ثوان وهممت بإغلاق الباب وإذا بشيء أسود متناهي الصغر يتقدم للأمام محققا قفزة قياسية تجاوزت العتبة. التفت بسرعة إلى الداخل محاولا التحقق من هوية هذا الكائن الفضولي الجريء الذي كان يشق طريقه وسط غرفة المعيشة بثقة زائدة ومن دون استئذان.

كانت ليلة خريفية باردة من ليالي الشاطئ الغربي. أوراق الأشجار المتساقطة تتكدس حول البيت والرياح تنوح بشدة وترسل سياتا لافحة كالعويل. وكنت وحيدا منذ عدة أشهر. كانت زوجتي آخر من غادر. هي من تبقى من رفاقي. فلم يعد غيرها من يطيقني -وأني لها أو غيرها ذلك- وقد كنت أنا الآخر بالكاد أطيع نفسي! كان اتفاقنا في غاية "البساطة" تسافر هي للعيش مع ابنتي اللتين كانتا تتابعان دراستهما الجامعية في الشاطئ الشرقي وتترك لي متسعا من الوقت أتفرغ فيه لاستكشاف أغوار ذلك الجوف الذي ظلت أشبأه تطاردني وتغويني في معظم

أحلامي وكوابيسي. لم تتفق على موعد للعودة ولم يكن هذا ممكنا...
وتركنا الأمر للأقدار لتجمع بيننا إن شاءت مرة ثانية... لقد أصبح بيننا
فجأة برزخ وبحر من الظلمات وآلاف من الأميال. كل شيء بات الآن رهينا
بي وبمدى قدرتي على الطفو مجددا على السطح بعدما ابتلعتني القوقعة
الوجودية في قعرها الرتيب. كنت ما أزال أتخبط في دوامتي الخائقة... أمام
الانسداد الكلي لعجلة العيش التي حددت معاييرها المطلقة تلك
المنظومة الأخطبوطية التي سيأتي الحديث عنها في سياق الرواية! أما
الآن فلا أمل في تسديد الفواتير المتراكمة أو تقليص الديون المتقادمة
بعدما تحولت لواحد من الخرفان القاصية خارج القطيع الذي يرعاه
"سيستم" المصفوفة إياها. لم يدفعني للانسلاخ والتمرد سوى علة
طبيعية في النفس كثيرا ما تحثني على نبذ كل احتواء اجتماعي أو
سلطوي... كنت باختصار عاجزا بالمطلق عن كسر الحصار واختراق
الجدران والأبواب المؤصدة في وجهي من الاتجاهين. بغياب رفيقتي
الأخيرة وصلتي الوحيدة بالمجتمع أفضلت من ورائي على آخر الأسباب
التي تربطني بكل ذلك الهراء الذي يتراكم فوق السطح... لم يعد ثمة
ما يثنيني عن تعقب ما كان يشغل بالي ويستحوذ على تفكيري منذ
سنين طويلة... إنه فضول البحث والتمحيص والتقصي في كل ما يتعلق
بأحداث وكوابيس تقلبات آخر الزمان والاختلالات الطارئة على بندول

الساعة الكونية... ألم يعد هذا هو حديث الخاص والعام؟ فكيف لي أن
أنجو من عدواه وفتنته؟؟؟

كانت الحشرة السوداء الجريئة تواصل قفزاتها البهلوانية وسط غرفة
المعيشة وكنت أنا على إثرها أسعى مطاردا ومهاجما بعدما تعرفت على
هويتها. لم تكن سوى واحدة من الصراصير العنكبوتية النطاطة التي
كانت في الواقع مجرد حشرة من بلايين الحشرات المسالمة إلا أنها لم
تعد كذلك بالنسبة لي.. بالنظر لما كانت تختزنه ذاكرتي من رؤى وأحلام
حول تلك المخلوقات المتحولة. لا أذكر جيدا كيف تناهى إلى علمي أن
هذا النوع من الحشرات يمكن أن تتقمص أدوارا درامية وتتحول إلى أشد
الكوابيس ضراوة كلما اقترب المرء من عالمها الآخر في الماورائيات!
فليس من قبيل الصدفة أن تكون الصراصير أقدم عمرا من الديناصورات
بملايين السنين. فما الذي أهلها لتصمد كل هذا الوقت من بين باقي
الخلائق المنقرضة وتواصل شق طريقها بثبات وسط ملحمة الصراع من
اجل البقاء وسط كينونات شرسة ومجهولة كالجن والجراثيم العتيقة؟

ح

قبيل طرق الباب كنت قد انتهيت لتوي من قراءة "كتاب العزيف" لصاحبه "عبد الله الحظرد" ذلك الشاعر الغريب الأطوار الذي كان مهووسا بالتواصل مع العوالم العتيقة ومؤمنا بوجود أجناس أخرى من غير الآدميين تزوجوا من نساء بشريات وأنجبوا منهن مسوحاً ورثت الكون وأصبحت تسيطر عليه في خفاء. هذا الكتاب الفريد تهافت عليه عبر القرون عدد كبير من المهتمين من كل الحضارات والأجناس والخلفيات الثقافية والدينية والمختصين بشؤون التنجيم والروحانيات والتواصل مع الكائنات الغيبية. وكان من أبرزهم مؤسس مدرسة روايات الرعب الحديثة لوفر كرافت الذي تقاطعت كتاباته مع كتابات عبد الله الحظرد خاصة في كتاب الموت "النيكرونوميكون". لم يكن العزيف سوى أصوات حشرات الليل التي جعلت سكان البادية العربية يعتقدونها من أصوات الجن والشياطين. وقد علم الكاتب اليمني خلال اتصاله بالعوالم القديمة بأن الكائنات الظلامية الغامضة سوف تتمكن يوما ما من السيطرة على الأرض في آخر الزمان وستقوم بتحويله إلى خرائب... وهذا ما دفعه إلى استعمال طرق سحرية غريبة ومرعبة لترويض بعض من هذه الكائنات للتعرف أكثر على أحداث وكينونات الماضي العتيق.. كانت أساليبه مخيفة يعتمد فيها على تناول أجزاء من لحوم الأموات بشكل معين للحصول على المعرفة التي يبحث عنها. لكن السحر انقلب على

الساحر في نهاية المطاف ولقي الحظر موتة غير طبيعية بعدما دخل في صراع مع وحش مريع فتك به بطريقة أصابت الشهود بالذهول والرعب. عند هذا الحد توقفت أسطورة العزيف بالنسبة لصاحبها لكن لعنتها ظلت حية عبر القرون وانتقلت من شخص لآخر. فمن تراه سيكون الشخص التالي؟

لسبب ما كان جزءا مني -ربما الجزء الخيالي- يميل إلى اعتبار هذه "الأساطير" أحداثا ممكنة في الواقع الموازي الذي لا تفقه فيه ساكنة السطح أدنى شيء ولا سبيل لإقناعها بأن الصراير يمكن لها أيضا ان تلعب دور العميل المزدوج فيما بين الأبعاد الكونية المتعددة والمتداخلة خصوصا ما بين عالمي الجن والإنس. أو عالم "المابين". لكن الجزء الآخر من شخصيتي -متعددة الأحوال- وهو الجزء الواقعي السطحي كثيرا ما كان يحسم الأمور لصالحه ويؤجل انغماسي في الماورائيات إلى أجل غير مسمى في غمرة النسيان والإنشغالات اليومية. غير أن الإقحام المفاجيء للحشرة شكل مناسبة جديدة لذلك الصراع الخفي بين الكينونات المتشاكسة داخلي. وفي خضم كل هذه الهواجس بادرت إلى مطاردة الصرصور تتنازعي ثلاث خواطر: هل أسحق الحشرة؟ أم أطردها فقط؟ أم أتركها وشأنها؟ استهوتني الفكرة الشيطانية الأولى فهرعت نحوها وهممت بسحقها تحت قدمي لولا أنني تراجعته في اللحظة الأخيرة وقلت مع نفسي مشفقا.. لم لا أدعها تؤنسني في

وحدتي... لا ضير في ذلك ما دمت أعيش عزلة اختيارية متواصلة. ثم التفت نحو الحشرة التي ظلت تواصل النط وسط الغرفة قائلاً:

مرحباً بك في عالمي المتواضع أيتها الزائرة الجسورة... ترى
كيف هو عالمك؟

لم أكن أنتظر أي رد من هذا المخلوق الصغير الذي سعيت إلى ممازحته بعدما اقتحم حجرتي وأفسد علي وحدتي. لكن ما حدث بعدها كان مذهلاً وقلب حياتي رأساً على عقب وكان سبباً في جل الأحداث الغريبة اللاحقة. فما إن أنهيت حديثي الخافت حتى ساد سكون مريب. وفيما يشبه الرهبة بدا لي فجأة وكأن الحشرة قد تنبّهت لقولي واستوعبت معانيه... توقفت عن النط وأخذت تحرك قرنيها الرفيعين كجهاز استشعار ثم أحسست وكأن القرنين يزدادان اهتزازاً وكلما تضاعفت السرعة إلا وتضاعفت معه الترددات والذبذبات. اشتدت سرعة الدوران وأحسست بالغرفة ومحتوياتها تلتفان من حولي وتدوران بوتيرة عجيبة متسارعة... خلت نفسي كالمعلق في أرجوحة كهربائية عملاقة. استغربت أول الأمر غير مصدق لما يقع وقلت في نفسي.. لعلها مجرد تهيؤات أو نوع من أحلام اليقظة! وحاولت أن أخطو بقدمي إلى الأمام للخروج من الدوامة لكنني فوجئت بعدم قدرتي على الحركة. كأن جاذبية خارقة تشدني إلى مكاني. كانت كل محتويات الغرفة تواصل دورانها من حولي...

الأثاث.. المكتبة.. عشرات الكتب.. ملابس.. فناجين وملاعق وسكاكين و"صحون" طائرة... كلها ظلت تطوف من حولي فيما بدأ الخدر يتسرب إلى جسمي وذهني ويسيطر على كل كياني...سعيت جاهدا للحفاظ على وعيي واستيعاب حقيقة الموقف حتى شعرت بالإرهاك التام ولم أعد أميز أي شيء سوى عشرات الدوائر اللامعة التي أخذت تتقارب وتتباعد وتحاصرني من كل جانب بوتيرة جنونية... ثم اختفى كل شيء بنفس الفجأة التي جاء بها.

ساد ظلام حالك لم أقو خلاله لا على الكلام ولا الرؤية. كان ثمة ضغط هائل ينفور في داخلي وضغط أهول يغشائي. حاولت مرة أخرى تحريك يدي فعجزت. استبدت بي الحيرة وبدأ يدب في نفسي دعر غير مسبوق. ظللت جامدا في مكاني صامتا مترقبا. وحدهما عيناى اللتان كانتا تحدقان في الظلام أصبحتا دليلى على ما تبقى من وجودي. مر علي زمن من الوقت لم أدر كم طالته مدته راجعت خلاله شريطا بأهم أحداث حياتي وطاف علي خلاله ركب الذكريات حلوها ومرها.. الناس شرارهم وأخيارهم...الآمال والانكسارات المتراكمة... وركام الخطايا والآثام والأعمال الشائنة. مر علي كل هذا رتيبا طويلا بطول العمر لا بقياس الزمن.. وأدى إلى تحطيم ما تبقى من تماسكي...

يا إلهي هل داهمني الصراط قبل الأوان؟ أم هي قيامتي
الفردية تفتتح أشغالها في البعد الآخر من الكون؟

لم ينتشلني من "صراطي" هذا سوى ومضات من نور غريب أخذ يتلأأ
من بعيد تشوبه خضرة قاتمة بدأت تتلاشى وتتحول إلى زرقة غامقة ثم
لازوردية سماوية. نظرت من حولي كان كل شيء مختلفا. اكتشفت أنني
لم أعد داخل بيتي بل في مكان غريب أشبه بالخلاء المقفر. التمعت في
ذهني فكرة كالقناعة بأنني في الربع الخالي أو الثلث الخالي... وطدت
نفسي على تقبل كل ما يمكن أن يحدث لي وانتظار الأسوء! من يدري
لعلني مقبل على الدخول في متاهة وجودية غير مسبوقه! ما المشكلة
إذن؟ كانت الأرض رملية فأدركت أنني أجم فوق الرمال... إنها الصحراء
من دون ريب.. سارعت إلى تحريك قدمي فطاوعتني وبدأت أخطو إلى
الأمام -حمدت الله على استعادة الحركة- لكنني صدمت من ضآلة
حجمي وخفة حركتي.. كانت الرؤية صعبة وسط ذلك الجو الضبابي ومع
ذلك شعرت بالقلق والذهول كأنني لم أعد على صبغتي الآدمية.. أدركت
ذلك على الفور. هل تحولت إلى حشرة؟ لا... غير معقول؟ بل أسوء! إنني
مسخت إلى ما يشبه الصرصور! يا إلهي؟ ماذا يحدث لي؟ فجأة غمرني
هدوء داخلي غريب يدعوني إلى التساكن مع الوضع الجديد وقبول الأمر
الواقع! فانطلقت في سيل من التساؤلات والتخمينات:

أين أنا؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟ وما معنى تحولي إلى حشرة
نطاطة؟ هل مسخت أم اتسخت؟ لكن مهلا! ما الذي كنته أصلا
من قبل؟ ألم أكن أكثر من حشرة آدمية متقاعسة منخرطة في
الحزب الكوني الأكثر إنتاجا للهراء عبر التاريخ وهو حزب
"الكنبة"؟ ألم تكن حياتي متمحورة سوى حول ثلاثية الدواب
المقدسة... الأكل والنوم والمضاجعة؟

بدأت أتذكر... مسترجعا خيوط المشاهد الأخيرة التي سبقت تحولي
وانمساخي التطوري الدارويني-البوذي... تذكرت تلك الحشرة اللعينة
التي طرقت بابي فيما لازلت اعتقد انه الأمس بمعايير زماني الآدمي لا
شك أنها مصدر كل ما يقع لي حاليا.. أخيرا جاء من يقطع علي حبل
أفكاري ويحسم بين كل هذه الهواجس التي تتقاذفني. كانت ثمة حركة
متصاعدة بالقرب مني وقفزة غير غريبة عني وبصوت يشبه صوت
العزيف أعادتني إلى رشدي... إنها هي بالطبع! ومن غيرها؟ كانت تقفز
نفس الحركات الأكروباتية وبنفس المرونة المطاطية وتتجه إلى الامام.
ووجدت نفسي أحذو حذوها تلقائيا وأتعقب خطاها من دون وعي مني
أو مقاومة... في حركات آلية خاضعة وكأنها واحدة من ولاة أمري!! كنت
أقلد خطواتها أو بالأحرى قفزاتها.. عندما رفعت قدمي الأولى ثم اتبعتها
بالثانية أحسست بقلبي يكاد يخرج من بين أضلعي.. كانت أفسى تجربة
يمكن أن يتخيلها آدمي مثلي تعود على المشي على قدمين (حتى لو

كانتا متشاكستين) إنني الآن أنط انطا تماما مثل تلك الحشرة! وسرعان
ما سمعت صوتا يهمس لي وكأنه ينبعث من داخل رأسي قائلا في
حماس:

مرحبا بك في عالمي...!

يا إلهي الآن تذكرت كل شيء. ألم تكن هذه العبارة هي آخر ما تفوهت
به وأنا أمازح تلك الحشرة التي زارتني في بيتي بالأمس؟ لم أكن أدري
أنها ستكون بمثابة الفخ الذي سيطوح بي على عتبة بوابة جوفية
مجهولة. ولم أدرك حينها بأنني في طريقي إلى مغامرة غامضة في قعر
الوجود. لم تكن تلك رحلتي الأولى أو الأخيرة!

خ

"مرحبا بك في عالمي!"...

يا لها من عبارة سحرية فتحت أمامي بوابات العوالم الغامضة فيما وراء عالمي البئيس والملعون الذي تركته من خلفي غير آسف ولا مشتاق... يتردد صدى العبارة على مسامعي ويتوغل في جوفي وذهنى وأنا ما بين اليقظة والمنام فأهبط صاحيا مستقصيا. ويا لهول ما وجدت... وجدتني أسير في طريق طويل وغامض. كنت وسط جموع هائلة من الخلائق والكينونات من ذوات الإثنين والأربع والستة أقدام وما لم أكن أعلم. منهم مسوخ ومصاصي دماء ومصاصي عرق وشفاطي طاقة وعفاريت وزواحف وعقارب وحلايف وقطعان شياها وماعز بشرية وغير بشرية وطبعا صراصير مختلف ألوانها وأشكالها. ومن فوقنا كانت تحلق أسراب هائلة من الطيور الجوارح والخفافيش والبوم والغربان والتنانين يليهم هجين من كل هؤلاء وأولئك. كان الموكب يلبس زيا موحدًا و"رسميا" حتى تهيأ لي في لحظة أنني بصدد استعراض عسكري و"بارا" عسكري يضم تشكيلات من مختلف أمم وأقوام الأكوام البعدية المتقاطعة والمتوازية والمتداخلة. كان الكل يتحرك بنظام بديع لكن بلا روح. كنا نسير جنبًا لجنب كتفا لكتف بنفس السرعة والإيقاع. الكل ينظر للأمام بنظرات زجاجية فارغة ولا مبالية. مر علينا وقت طويل واستمر المسير

بنفس الوتيرة. لا أحد يتقدم على أحد ولا أحد يتأخر. كانت الخطوات محسوبة ومبرمجة. طال علينا الوقت وخفت الضوء الكوني المشع الغريب وحل ظلام كوني أغرب لم أعهدهما من قبل في حيواتي السابقة ونحن ما نزال نسير.. جنباً لجنب وكتفا لكتف. ولما عاد ضوء جديد كنا نمضي على حالنا دون كلل ولا ملل بلا قصد ولا غاية. تعاقبت علينا ما يشبه الأيام والليالي ففقدت كل إحساس بالزمن. واستمر المسير. بعد مدة -بطول العمر- خلتها لن تنقضي أبداً -وبشكل ما- انتهت لنفسي. لقد بدأت أتململ فعلا من الضجر فيما أخذ ينتابني شعور غامض باللاجدوى. ثمة شيء غير طبيعي في كل هذا المشهد؟ وتلاعبت بي الأفكار فصرت أسأل نفسي..

من هؤلاء وأولئك؟ وما سر وجودي بينهم؟ ماذا يربطني بهم أصلاً؟ وأين ترانا تتجه؟ ما سر هذا الإيقاع الآلي الجهنمي؟ ولماذا علينا أن نسير طوال هذه المدة هكذا بلا نهاية ولا غاية؟ وتلك الطريقة؟

عند هذا الحد اخذت ألتفت يمينا ويسارا ومن فوقي ومن تحتي... بدأت أشعر باختلال في خطواتي وسيري..

من هؤلاء يا ترى؟ ولماذا يرافقونني كظلي؟ أتراني ظل من ظلالهم؟ أم كلنا ظلال باهتة منقادة نحو مصير غامض؟

كنت كلما ازددت تفكيراً وتركيزاً إلا وتناسلت مزيد من الأسئلة وتعددت.
وكلما ازدادت الأسئلة تساقطاً على ذهني كلما اشتدت الرياح والزوابع
من حولي.. والموكب على حاله يمضي لا يلوي على شيء بهمة ونشاط
متجدد يفوق التصور.

غير معقول هذا الذي يحصل معي هنا...! هل هم مخلوقات أصلية أم
آلات موجهة ومبرمجة على السير بانضباط وبلا غاية إلى ما لا نهاية؟

فجأة -وكلمح البصر- التمعت الفكرة في ذهني. وكان العياء والملل
واليأس قد أخذوا مني مأخذهم وعيل صبري فبدأت أستشعر الضجر
والعبث في كل ما أقوم به وسط هذا الركب الهجين... فازدادت خطواتي
تعثراً وأخذت أفقد تدريجياً خيط توازني واتساق مع الركب العام. لم أعد
وإياهم على نفس الإيقاع وكلما قل إحساسي بوقع خطواتي إلا وتهياً لي
أنني أسير القهقري.. كأنني أسير على عقبي أكثر مما أمضي نحو الامام!
حاولت جاهداً تدارك الموقف واللحاق بالموكب ولكن...هيهات...لقد
فات الأوان! كانت الجموع تتجاوزني باضطراد كنت أدرك ذلك من خلال
تغير الوجوه والسحنات والاقنعة المتعاقبة على تجاوزي. عبثاً أمسى
سعيي للحاق بالسياق ومواصلة السباق. اعتراني الذعر والإرتباك فقررت
الهرولة لكن رغم محاولاتي اليائسة استمرت المسافة بيننا في الإتساع ثم
ضاعفت من سرعتي وأطلقت ساقى للريح... دخلت في وصلة من الركض

الجنوني مستحضرا مشهدا من مشاهد "فوريسست غامب" مع تعاضم إحساسى بالخطر والوحدة والعزلة. كنت قد بدأت استأنس بأجواء الركب رغم كل شيء! حاولت أن أصرخ ملء صوتي وأطلب من الركب التمهّل ريثما أتمكن من اللحاق به ولكن لا حياة لمن تنادي. ظل الموكب يبتعد عني أكثر فأكثر وأنا أركض خلفه لاهثا أسرع فأسرع وصراخي يتصاعد أعلى فأعلى حتى ملأ كل الأرجاء. كنت أدرك في قرارة نفسي أنه قد فات الأوان ولا جدوى بعد الآن لما أقوم به! ألم أنفصل بإرادتي عن ذلك الموكب المتناسق الخطى وربما إلى الأبد؟ فلماذا الإصرار على الملاحقة؟ وما هي سوى لحظات حتى اختفت عن ناظري آخر الصفوف ولم يتبق في الأفق سوى نقع غبار الأقدام والحوافر. لم يبق في الساحة الخالية سواي! كانت قواي في انهيار ومشاعر الريبة تتصاعد في خاطري. مر علي حين من الدهر وأنا ماض في الطريق الطويل المجهول... وحيدا هذه المرة شريدا مهموما...أسير بإيقاع جديد خطوات غير منتظمة ولكنها خطواتي.. وأدركت في الأخير أنني مازلت نفس الشخص الذي كنته... إنني بخير ما دمت محتفظا بحريتي وفطرتي... فلماذا علي مجازاة الموكب؟ ولماذا علي اللحاق بها؟ ما دمت أملك قراري فلا يضيرني ما سيحصل! استهوتني الفكرة فبدأت أنظر للأمر بشكل مختلف. لكن شيئا آخر ظل يثير حيرتي.

ما هو يا ترى ذلك الاتجاه العام الذي تقصده كل تلك الجموع الحاشدة؟
بتلك الدقة العسكرية والخطوات الآلية المبرمجة؟ كانت دقة تتجاوز
قدرة الآدميين.

إذا كان هؤلاء من غير الآدميين متى حشرت بينهم؟ ومتى صرت في
موكبهم؟ هل كنت جزء منهم؟ ولماذا توجب علينا السير بكل تلك
العجلة؟

عند هذا الحد من التأمل والتفكير عاد إلى نفسي اطمئنانها واسترد عقلي
صفاءه. ثم توقفت تلقائيا عن السير واللهات وراء موكب سرعان ما
تحول إلى سراب... كان شعوري هذه المرة غامرا بالتححرر والتناغم مع
ذاتي وكينونتي الفطرية. أدركت عبثية الانخراط في المواقب السائرة بلا
هدى حتى لو كانت حاشدة ومنتظمة فليست في الأخير سوى حشود
مبرمجة على معايير "منظومة" غامضة لا تتوخى سوى الاستغلال
والاستعباد والسيطرة.

د

أوشكت الأرض أن تستنفذ دورتها الدهرية الختامية بعد تحقق معظم علامات الخراب وأشرف السجل الكوني على طي آخر مراحلها.. فقدت الحياة البشرية والحيوات الأخرى الموازية والمتقاطعة معها أسباب التناغم والانسجام. واستمر الاصطفاف هنالك.. في تلك الساحة الشاسعة السحيقة المجوفة. كان تقاطع الجوف مع السطح لا يشمل فقط تلك التفاعلات والتقاطعات ما بين المرايا الأصلية وانعكاساتها العبر-كونية بقدر ما كان منعكسا شموليا للحتمية الوجودية لكل الكائنات والخلائق ومحصلة نهائية لسير الأرواح والأعمال. كان المناخ العام يوحى باقترب أمر جلل. لربما يكون الأعظم والأهول في تاريخ الجوف السحيق. ذلك التاريخ الأصلي الذي لم يطله تزييف. كان الإصطفاف عظيما وعجيبا.. كل قوم يحملون راية وشعارا ويتقدمهم أسمى رموزهم وأيقوناتهم. وكل أمة تتجه صوب الساحة الفسيحة مرددة أناشيدها المقدسة ونصوصها السرمدية مؤمنة أشد الإيمان أنها وحدها التي تمتلك الحقيقة والمشروعية الحصرية لدحر بقية الأمم التي ليست سوى تمثلات للباطل ومصادر للشر وينبغي اجتثاثها نهائيا في هذه المعركة الكونية المصيرية الحاسمة. كل أمة كانت ترى في نفسها الفئة الغالبة الموعودة بالمجد الأبدي.. إنها وحدها من يستحق الحياة والخلود.

أما في النقطة البعيدة من الساحة العتيدة المهيئة للصدام فكانت ثمة عين تراقب المشهد برمته.. تتفحص مختلف الجهات وكل الأقوام القادمة والمتقدمة والرايات المتماوجة والشعارات والطقوس والأناشيد الصاخبة. كانت تلك العين من فرط الثقة بنجاح مخططها تبدو وكأنها مأذون لها ما ليس لغيرها وكلها ترقب للشروع في الخطوة القادمة والحاسمة دون اعتبار لطبيعة الغالبين أو المغلوبين ما داموا في النهاية مجرد وقود للمعركة التي استعرت في الأفق مورطة معها كل الخلائق. هل كانت تأبه أصلا لطبيعة الأطراف المتناحرة أو مصيرهم؟ أم أنها كانت تتطلع فقط لما بعد تلك المعركة التي أحبكت خيوطها بدهاء من وراء ستار؟ لم تكن سوى معركة الذاهبين إلى حتفهم والباحثين عن فنائهم. الكل كان يدعي أنه يمتلك حق التفويض واحتكار ما ليس من حقه فبالأحرى تقرير مصير أولئك الذين يدبون فوق السطح أو الذين يتربصون بهم في الخفاء من تحالف الأبالسة ومستعمري الجوف السحيق؟ كانت الجهات الأربع من أرجاء جوف الأرض تمتلئ برايات وبيارق وأعداد لا معدودة من الخلائق والكينونات تتداخل صيحاتها بالوعيد والثبور. لم تكن كل تلك الجحافل المحتشدة بانتظاراتها الحارقة وصفوفها المتنطعة المتحفزة إلا أدوات موجهة ومنقادة لمطامع تلك العين الفذة.. الغامضة والغريبة.

(2)

بهلوان الكراج

صرت أكثر انتباها لنفسي وأطوارها الغريبة منذ تلك الحادثة الليلية مع
المرصور العنكبوتي فقد كنت أقف عاجزا كلما حاولت تذكر أول عهد لي
مع رحلات الجوف التي تعودت عليها-على الأرجح- منذ حادثة سني. غير
أنها ظلت رحلات متقطعة ومكتومة نتيجة هيمنة الجزء الانطوائي من
شخصيتي على باقي الشخصيات المتشاكسة داخلي وهي الحقيقة
الجلية التي أبيت الإقرار بها لمدة طويلة حتى جاءت رحلتي الأخيرة لتغير
من نظرتي لنفسي وللناس وللعالَم بشكل جذري؛ فاكشفت كم كنت
مخدوعا ومضللا ومغيبا تماما عن حقيقة ما يجري من حولي. قبل أن
أكتشف مدى تغول المنظمة "زيتا" وهيمنتها المطلقة من خلال
مصفوفة من المعايير المدسوسة في ثنايا الفقايع والبوتقات الجاهزة
لتدجين القطيع.. كانت واقعة "انمساخي" هي نقطة التحول. فكنت في
كل مرة أصغي فيها لنفسي إلا وتداهمني الحقيقة المرة... فأنا لا أتمي
للعالم المنظور إلا لماما وقلما تفاعلت واقعيا مع الأرض ودورانها

المتنازع حوله! ولا تجذبني جاذبية سطحها. كأنني خلقت لأكون أقرب ما أكون للبهلوان مني للممثل أو اللاعب وهي الأدوار الثلاثة الوحيدة المتاحة لأمثالي بقوة قانون "الهوية الكونية" وبصمة الجينات الوراثية والطاغوت المعياري الاجتماعي الطبقي الذي كرسته المقاوله عبر-الكونية دستورا "توتاليتاريا" مطلقا منذ عهود. لهذا كنت في أغلب مراحل حياتي أشبه بالبهلوان رغم أن هذا الأخير لا يمتحن النط والخروج عن النص إلا لمدة محدودة ومحددة يعود بعدها إلى حالته "السطح-أرضية" ...فيما أظن أنا معلقا بين الأرض وجوفها -وأحيانا قليلة فضاءها- وقلما أظن السطح بقلتي قدمي. ما السر في ذلك يا ترى؟ هل من قلة جاذبية أعانيها؟ أم هو قدرتي كوني خلقت لأقفز لا لكي أمشي في الأسواق حتى من قبل أن تطرق تلك الحشرة العابرة للأكوان بابي في تلك الليلة الخريفية الداھمة؟ فهل أنا إلا صرصور هجين من تلك الصراصير العنكبوتية التي غزت السطح بزياراتها المفاجئة حاملة معها رسائل مشفرة ما بين العوالم؟ أم تراني صرصور كافكاوي مبتعث؟ أم أنني مجرد صرصور تقليدي حامل من بلايين الصراصير التي تضحج بها المنتديات السطحية في طبقتها القشرية؟ لكن حتى هذه الأخيرة تبقى أكثر تشبها بالأرض مني وأشد انجذابا لأضوائها. كان ممكنا أن أكون أقرب للخفاش لولا أنه أقدر مني على الاحتفاظ بتوازنه رأسا على عقب ضمن تيار وجودي مبني على قاعدة الرجل إلى الأعلى والرأس في الأسفل. أما أنا فما

زلت عاجزا عن تحديد سر هذا الاختلال في توازي وقلة تفاعلي مع فيزياء
السطح. لا أذكر آخر مرة توفقت فيها في الوقوف والخطو على السطح
بقدمين راسختين. كل ما أذكره أنني كلما أفقت من غيبوتي الفطرية إلا
وكنت شاهدا على غرائب المشاهد المتبلورة من حولي ومن خلالي. كمن
أصارع قوى خفية تنتزعني انتزاعا من سيرى الوئيد. وكلما هممت بوضع
قدم إلا وقفزت الأخرى إلى الأعلى وكأنها تفر من شيء ما غامض ومريب
يتحرك تحتها ويسعى إلى ابتلاعها... وهذا ما حصل لي في نهاية
المطاف. إنها جرعتي الحتمية من الخسف الوجودي.. ما الذي يحدث مع
قدمي الاثنتين يا ترى؟ هل ثمة معضلة وجودية عميقة تباعد بينهما؟ أم
أن خلافاتهما الفلسفية والايديولوجية أعقد مما تبدو؟ ما الذي يجبرهما
على عدم الإنضباط والسير جنبا لجنب؟ أم لعل في الأمر تشوه نفسي
وخلقي لا أكثر؟

الثالثة ما بعد منتصف الليل (دائما وأبدا)

ذ

كان الكراج الجديد الذي التحقت به في ملكية أحد فروع المؤسسة عبر-الكونية ويتكون من سبع طبقات. الطبقة الأولى أرضية تطل على الشارع وتضم مكتبا صغيرا للإدارة وكشك زجاجي يستعمل كشباك الأداء بالنسبة لمستعملي المرأب، أما الطوابق الباقية فكانت تحت أرضية وكلها عبارة عن باركينغ لصف السيارات على مدار أربعة وعشرين ساعة.. فيا لها من تجربة صادمة أخوضها وأواجهها حتى قبل أن تستأنس قدماي مع أرض الأحلام الجديدة التي حلت بها حلول رواد الفضاء بالكواكب المجهولة وخططت بها من علياء أوهامي. قبل حتى أن استوعب الكيفية التي تظافرت فيها كل تلك المصادفات أو المقادير لتلقي بي-في خريف العمر-على ضفاف أعتى إمبراطوريات العهد الجديد!! رحلة تحولت في رمشة عين من منحة إلى منحة ومن أكثر الأحلام جاذبية إلى أفطع الكوايبس وأشدّها سوربالية. لم يكن قد مر على حلولي بالشاطئ الغربي إلا أسابيع معدودة حتى وجدت نفسي غارقا في دوامة من المتغيرات المتسارعة المحيطة توجت سلسلة من التقلبات الطارئة على حياتي داهمتني في الشاطئ الخلفي من بلادي الأخرى التي تركتها من ورائي وهي ماتزال تمعن في الإسترخاء والتشاؤب في عالمها الفولكلوري النرجسي الرتيب؛ غير عابئة بما يحاك لأمثالها من حباك وخيمة. لم يكن نمط العيش الذي تشبعت به ولا إيقاع سير الأحداث

هناك ليقارعا ما يجري هنا من تسارع وتلاطم تحت وطأة مصفوفة جهنمية جمعت ما بين عصارات عاد وثمرود والفراغة وبابل.. الكل هنا في سباق محموم ومستديم للطفو على السطح خشية الغرق العظيم. كان نفس التقسيم الكوني العتيق نفسه هو السائد.. أغلبية تكدح لسد الرمق أو ما دون الرمق وأقلية من النخبة تستأثر بالرفاه...

يا لها من ورطة وجودية جديدة انجرفت إليها بمحض إرادتي؟ ماذا جنيت حتى أتحوّل إلى كائن "مدفون" في هذه العتمة والسرديب الممتهنة للكرامة التي سافرت آلاف الأميال فقط من أجل صيانتها؟ وأنا الذي كنت قبل أشهر معدودة كينونة شديدة الأنفة وفقاعة عمومية محاطة بالأضواء في موطنها الأول؟ فأية ورطة هاته التي جذبتني إليها أحلام السنوات الخداعات؟

هكذا كنت أحدث نفسي وأنا منهمك في كنس الغبار الأسود الذي لا ينتهي من آثار أدخنة عوادم السيارات التي لا تتوقف طوابيرها عن القدوم والمغادرة دون أن تترك لي فرصة التقاط انفاسي. تابعت سيل أفكار الحانقة وأنا أستحضر الوجه الآخر من المسألة.

ماذا تريد أكثر؟ ألم تكن تلك رغبتك؟ ألسنت أنت من سعيت

خلف مزيد من الديموقراطية وحرية التعبير والكرامة

**الإنسانية والفرص السانحة؟ أنت الذي راهنت على أنك لن
تجدها في أية بقعة أخرى من العالم إلا هنا!**

عند هذا الحد بدأت مشاعر الإحباط تتلاشى وتعوضها حالة وجودية
تبريرية أقرب ما تكون إلى التسليم سرعان ما أعقبتها موجة ثانية من
السخط والإحتجاج الداخلي. كان بطله هذه المرة ذلك الذي يسمونه "الأنا
الأعلى" لهذا توجهت نحوه مستبقا في محاولة لوضع حد لثورتي الداخلية
قبل اندلاعها:

ماذا كنت تتوقع من دخولك لهذا العالم أيها الأحمق المغفل؟

لم اكد أنني كلامي حتى فوجئت بهذا "الأنا الأعلى" اللعين ينسلخ عني
بعنف ويتحول إلى "ظل وقح" أو ما يشبه الكائن الشبحي وإذا به يحدق
في عيني بكل غرور وكبرياء رافعا صوته في وجهي الشاحب المرهق:

**أتريد أن تعرف حقا ما كان مفترضا أن يحدث! كان يفترض
من دخولك هذه البلاد ألا يقل أهمية وفخامة من دخول
كريستوف كولومبوس!**

(لم أستطع تمالك نفسي من الضحك): لا شك أنك جننت!!

**أنت الذي جننت حتى ترضى لنفسك بهذا المصير؟ أتريدني
أن أنسى بهذه السرعة ما كنته قبل شهور قليلة وما أصبحت
عليه الآن؟**

ماذا كنت أصلا يا كريستوف كولومبوس الجديد؟ هل اكتشفت
ما لم يكتشفه غيرك؟

**يبدو أنك لا زلت في حالة نكران تجعلك تتجاهل مركزك
ومهنتك "الحقيقية" التي بنيت حولها كل أحلامك وأمانيك؟
ألسنت نفسك الصحفي المعتد بنفسه وأفكاره ومواقفه إلى
عهد قريب؟ ألا تفتقد إلى الأضواء والشهرة التي غمرت
نفسك بها طيلة تلك السنوات الزاهية؟**

ما عاد يهمني الأمر! كانت مجرد شهرة خادعة بلا قيمة وقد
مللت أضواءها المزيفة ودروبها المضللة!

**حتى لو كانت خادعة ألم تحقق لك اسما وسمعة وصيتا
كيف-بالله عليك- نسيت بهذه السرعة كل تلك الصولات
والجولات و.و.و.**

كفى هراء! كنت مجرد كائن مفرط في حماسته يثرثر من وراء
الميكروفون فيتردد صدى كلماته صيحات في أودية جوفاء
مجوفة.

ذلك أفضل مما أنت عليه اليوم! وماذا عن ذاك "المحارب"
الذي كنته في ساحات النضال والمطالبة بالحقوق والحريات؟
هل كل ذلك راح سدى؟ ألم يكن رفاقك يدعونك تشي غيفارا
فيما كان يلذ لألد خصامك أن ينعتوك بالدون كيشوت؟

غيفارا دفعة واحدة؟ ربما لم أكن إلا نسخة من طواحين الهواء
التي كان يحاربها دون كيشوت!

كفاك تبخيسا وجلدا لذاتك فإنهما من علامات الإحباط
والكآبة. يكفيك فخرا أنك نجحت في الجمع بين "الدون" و
"التشي" في "قالب" واحد وهذا في حد ذاته إنجاز! ربما كان
خطأك الوحيد والقاتل إصرارك على مقارعة التماسيح
والعفاريت بأدوات كرتونية؟

أفلا يشفع لي انتمائي لتلك الزمرة النضالية التي حسبته
الأشرس في الدفاع عن الحقوق؟

إن كان الأمر يتعلق بالحقوق الخاصة فاطمئن. لقد نالت
زمرتك "الشرسة" حقوقها كاملة وبزيادة! لكن أرجوك لا
تحدثني مرة أخرى عن أمثالها من الفقاقيع الهوائية؟

إياك والظعن في مواقف أو التشكيك في توضيحات زمرتي!

بغض النظر عن نواياك الطيبة في تلك الساحات
الدونكيشوتية فالمعضلة كانت تكمن في "القالب" الجماعي
لمسرحيتكم الهزلية ومآلاتها المأساوية.

لم تكن النتائج لتهمني طالما الأعمال بالنيات.!

نعم إنها نفسها النيات الحسنة التي فرشت لك طريقك
الحالي نحو الجحيم! وما دمت مقتنعا بمآلك الخاص فلا
بأس! لكن لا بد لك من مواجهة الحقيقة المرة؟

ليست ثمة إلا حقيقة واحدة أوؤمن بها مادامت مطلقة وكونية
وعامة هكذا كنت وهكذا كانت تلك التي كنت أحسبها زمرتي!

لم لا تكون أكثر براغماتية؟ كفاك النظر إلى ما يجري في العالم
من حولك بعيون فلسفية؟ إلى متى ستظل تصيح في واد بلا
قرار!!

ألا تخجل من نفسك؟ تطالبنى بتغيير موقفى وأنا فى أرذل
عمري!؟

لا عليك تريد نوعا من المجاملة! طيب لقد كنتم أظرف
شرذمة من المهرجين شهدتها ميادين التحرير فى ذلك الربيع
المشؤوم لكن خانتكم خلفياتكم الكوميديّة البدائية عندما
حاولتم تقمص أدوارا ميلودرامية بالغة التعقيد هذا كل ما فى
الأمر!

ما مارسناه وناضلنا من أجله لم تكن له علاقة بالتمثيل!

لا فرق بين التمثيل أمام الناس على خشبة المسرح وتمثيل
هؤلاء الناس على مسرح الواقع؟

ماذا تقصد بمسرح الواقع؟

ماذا تسميها إذن كل تلك التنظيمات المتناسلة.. مجلس
الشعب.. والحزب.. والنقابة.. والجمعية والحكومة.. وكل
هيئة تمثل جماعة من الناس؟

وما علاقتى بكل هؤلاء؟

*لا فائدة من الإنكار! لقد اتميت بمحض إرادتك لتلك الجماعة
من المهرجين في ذلك السيرك العجيب.. وها أنت اليوم
بهلوانا فريدا في كراج ما بعد منتصف الليل! ألا يشرفك هذا؟*

اللجنة يا له من وقح! لقد ألقمني حجرا تلو الآخر ووضعتني تقريعه في
الزاوية الضيقة. وبقدر ما أفحمتني كلماته الأخيرة فقد كان أكثر ما ألمني
مقارنته الساخرة وغير العادلة بيني وبين كريستوف كولومبوس. لم
أستطع ابتلاع هذه الإهانة وأسررتها في نفسي. فجأة انتابني حمية
وحماسة أشبه ما تكون بلوثات الماضي القريب فقلت لنفسي معزيا
ومهونا:

*ومن يكون هؤلاء المستكشفين والمغامرين العظام! ماذا
يهمني من أمرهم؟ لست أعترف سوى بالدون كيشوت هو من
يستهويني اقتفاء أثره! فأهلا بالطواحين وحتى "الطواحين"!*

كنت في الواقع أتصور جوعا فانفلتت مني هذه العبارة رغما عني
واتخذتها ذريعة لأخذ استراحة وتناول ساندويتش كان عبارة عن "شاطر
ومشطور وبينهما طيز من التشيز". ولم أستأنف العمل بعدها حتى
كنت قد قطعت على نفسي وعدا بالأ يهدأ لي بال حتى أخوض تحديا غير
مسبوق لسبر أعماق الأغوار واستكشاف أراض وعوالم لم يكن
كريستوف نفسه ليحلم بها هو وأمثاله ولو في المنام!

**حتى لو كانت هذه العوالم مدفونة في أعماق الأرض وليس
فقط على سطحها؟**

هكذا تساءل ظلي الوقح. وبدلاً من توبيخه وجدتني أهول نحوه وأعانقه
عناقاً حاراً لم أستفق منه حتى أحسست بخشونة وصلابة غير عاديتين
كدت أن أكسر معها ضلوعي ففتحت عيني لأتفاجأ بنفسي معانقاً إحدى
الأعمدة الإسمنتية للمرأب فالتفت يميناً ويساراً باحثاً عن هذا الظل
الوقح فوجدته أخيراً متخفياً وراء إحدى السيارات المكونة. خاطبته
مهلاً:

أتدري بأنك أنقذت حياتي وكبريائي دفعة واحدة؟

نظر إلي باستغراب فأضفت:

لقد أوحيت إلي -على التو- بفكرة عبقرية لا تخطر بالبال!

وماهي؟

الجوف... هل فهمت! هذا ما أحججه في رهاني القادم مع غريمي

الأكبر كولومبوس والآخرين...

هل يمكن أن توضح أكثر؟

ليس لدي ما أقوله أكثر من ذلك. دعني أقلب المسألة من جميع الوجوه... وسأخبرك في الوقت المناسب!

لم يكن عقلي الواعي ليصدق كل هاته الشطحات التي كنت أرددها ولكنني كنت مستعدا لفعل أي شيء يعيد لكبريائي المحطم شظايا "كرامته" المهذورة! لقد أصبحت الآن مكشوفاً في مواجهة الحقيقة المرة التي كنت أحاول دفنها من ضمن ما دفنته قبل هجري الأخيرة. ففي الرmq الأخير من حياتي السابقة كنت قد أعلنت طلاقاً بالثلاث ومن جانب واحد مع المهنة الوحيدة التي عشقتها منذ الصغر لأكتشف في عز الكبر أن معشوقتي تلك لم تكن إلا واحدة من مطايا وبغايا دجاللة العهد الجديد. فاعتبرت كل ما جمعني بها في السابق مجرد نزوة. ثم طويت الصفحة... فهل كانت مرحلة خمرة واستيقظت منها؟ أم كانت اختياراً خاطئاً من البداية؟ أم تراها قدرا ارتضيته قبل أن أتُمرد عليه؟

كانت البالوعة الإعلامية التي استهوتني وشفطت عصارة شبابي قد تركت في نفسي عدوى لا شفاء منها حتى اضطرت إلى الإنسلاخ كرها عن قبيلة "الفقايع الوهمية". ثم الإنسلاخ على هيئة جرد نطاط قبل أن تقذف بي التيارات الغربية إلى الضفة الأخرى. هناك حيث كانت أحلام الرصيف الآخر تنتظر من هم أمثالي وهي محاطة بطابور من المستشارين والمسوقين ومدراء الاعمال. كانت أحلام الشاطئ الغربي لا تختلف كثيراً

عن كازينوهات القمار والمراهنة التي تعج بها أهم حواضرها فيما أن تجعل منك صاحب الحظ السعيد.. وهذا لا يتحقق إلا في الأفلام الهوليوودية... أو تتحول أحلامك إلى كوابيس مفزعة وهذا ما وقع! حينما فتحت عيني في الضفة الأخرى لم أكن أحمل معي لا ميكروفونا ولا "حاسوبا" ولا حتى قلمًا للرصاص كل ما وجدت بحوزتي مكنسة ومناديل وعلب للتنظيف والتعقيم وأكياس للقمامة.. لقد وجدت في انتظاري جبل "سيزيفي" مقلوب الهرم تسلقه يبدأ من القمة نحو القاع تماما كما يفعل رواد المغارات والكهوف وكان التحدي "الأولمبي" يقضي بكنس وتنظيف مرآب عملاق من ذوات الطوابق السبع. وهي نفسها الطوابق الجوفية المظلمة التي ستكون عنوان رحلتي المجهولة القادمة في مسلسل الرعب الغامض.

يا لها من ليلة صقيعية استثنائية على رصيف شارع القيامة.. إنها احتفالات ليلة الميلاد بأجوائها الصاخبة وطقوسها المبهرة. كنت آخر من بقي من المستخدمين في ذلك التوقيت المتأخر رغم كونه أول أيام عملي الرسمية بهذه البلاد الجديدة و"السعيدة" التي حللت بها قبل أسابيع قليلة... كنت أنا أيضا بمثابة "القادم الجديد" و"سعيد الحظ" ومن سخرية الأقدار أن زميلي الذي كان من المفترض أن يرافقني في دوامي الليلي الأول اضطر للمغادرة بسبب تعرضه لوعكة صحية طارئة فتركني وحيدا في ورطتي.. كان دوامي ينتهي بعد ساعة (أي في الرابعة صباحا قبيل الفجر). كنت واقفا على الرصيف قبالة العلبة الليلية الشهيرة التي اعتاد روادها النزول أولا بالكراج لركن سياراتهم الفاخرة قبل الإنغماس في احتفالاتهم الليلية الحمراء والوردية والقزحية. انصرف كل زملاء العمل وبقيت لوحدي حائرا أنتظر آخر الزبائن الذين حلوا لدينا تلك الليلة لقد كانوا غريبي الاطوار. وأعجب ما لفت الأنظار إليهم سياراتهم "العجيبة" التي شكل حلولها بالكراج حدثا استثنائيا نظرا لفرادتها من حيث الشكل والتصميم لدرجة أننا عجزنا عن تحديد نوعها ومواصفاتها الهندسية والالكترو-ميكانيكية. فقد كانت باختصار أقرب في هيئتها الى غواصة جوفية من مركبة فضائية! هذا كل ما أتذكره الآن... لأننا بعدما نجحنا في ركنها بصعوبة في قاع الطابق السفلي الأخير وجدنا صعوبة أكبر في تحديد

مواصفاتها وفوجئنا بغرابة مكوناتها والإكسسوارات التي تؤثثها داخليا وخارجيا. كانت أطول من "الليمو" ذات الستة أبواب وأعلى منها وأضخم، ولونها غامق في زرقته، وأضواؤها كثيرة وساطعة أكثر من المعتاد. لم أتفحص وجوه مالكةا أو مرافقيه الستة ولكنني كنت واعيا بغرابة أطوارهم حتى لو لم يسعفني ضغط العمل على تأمل ملامحهم فقد كانوا يضعون أقنعة تنكرية.

مع اقتراب الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل وفي غمرة الصمت والوحدة الموحشة طافت بذهني صورة تلك السيارة العجيبة فقررت على الفور إشباع فضولي والنزول لتفقدتها، متسائلا عن سبب تأخر راكميها في الحضور. لم يكن يتطلب مني الأمر سوى حركة واحدة صائبة وهي كبس زر المصعد\المهبط للوصول إلى غايتي... لكنني -وهذا يحدث لي أحيانا- أحسست بدافع غامض يبعديني عن استعمال المصعد الأوتوماتيكي ويدفعني للنزول راجلا عبر النفق المخصص للسيارات. اتابني شعور خفي يحذرنني من القيام بتلك الخطوة لما فيها من مخاطرة وتهور -خصوصا وأن المكان كان ضخما وجديدا بالنسبة لي ناهيك عن إضاءته الخافتة وأرضيته المغبرة المتعرجة والزلقة. كان توقيتا سيئا وغير مثالي بالمرّة... ومع ذلك ركبت دماغي واخترت المجازفة. لم أكن أدري أنني باتخاذي ذلك القرار كنت قد أدت ظهري إلى غير رجعة لكل ما يمت لعالم الواقع المشهود بصلة واستبدلته بعالم آخر مختلف

يناقضه في الشكل والمضمون. فأنا لما شرعت في نزول الطبقات الأولى للمرأب بقدمين مترددتين كنت قد غادرت دائرة "الأمان" للمرة الأخيرة في حياتي ودخلت مصيدة المجهول مقتفيا آثار أقدم أخرى لظلال وأشباح وكائنات غامضة وموغلة في القدم..

شرعت في هبوط منحدرات الكراج بحذر وما إن تجاوزت الطبقة الأولى أو الثانية حتى باغتني عطل في الإنارة. تعطلت معه جميع حواسي الحيوية جعلتني أقف مترددا معزولا وسط الظلام الحالك والأصوات الغامضة التي انطلقت من معاقلها وكأنها كانت متربصة بي منذ زمن بعيد ولا تنتظر سوى هذه الفرصة لتكشر عن نواياها الخفية حاولت جاهدا تلمس طريقي وسط الظلام والرهبة ومواصلة النزول ولو بدون بوصلة بعدما اجتاحت أذني تحرشات الوسواس ووعيد الهامسين في الظلام! وفجأة... حدث ما لم يكن في الحسبان.

ز

من؟ من! أين نحن؟

من أنتم؟

من أنت؟ أين أنا؟

من أنت؟

أين نحن؟

من أنتم؟

من نحن؟

من أنتم؟ من أنتم؟ من أنتم؟

ما كل هذا الصراخ... والفرع... والتوتر؟ ولم كل هذا الهلع؟ ما كل هذه الأصوات المتداخلة؟ ما هو مصدرها ياترى؟

يبدو كأنها خارجة ومتصارعة من شخص واحد؟

فوجئت بالصوت يتردد صداه من حولي يؤكد شكوكي كلنا كان ذلك الصوت اليائس وكلنا كان يشعر بالخطرا!

هكذا تساءلت في محاولة يائسة لتجاهل حالة الذعر التي أخذت تتسلل
إلى نفسي

يا إلهي الأمر حقيقي؟

لا شك أنه... أنا ومن غيري!

وهذا الجوف؟ أهو جوفنا؟

لا لا يمكن ان يكون؟

يا له من عالم منقعر وهائل في تضاريسه الحلزونية! لا شك
أنه جوفها؟ ألا ترى معي كيف توشك أن تبلعنا؟

ماذا تعني؟ عماذا تتحدث؟

قل بربك ما هذه القوة الرهيبة التي تجذبنا إلى الأسفل ألا
تشعر بالأمر؟

كفى فزعاً.. لست وحدك.. كلنا نمضي في طريقنا إلى الهاوية.
اهدأ قليلاً أظنها الأرض. من يجذبنا إلى القعر؟

ولكن لماذا؟ هل وقعت الواقعة؟

كنت... وكانت معي كل أصواتي الضاجة داخلي... حتى تلك التي كنت أجهلها أو أتجاهلها.. تلك المكونات المتشاكسة هي الأخرى ظلت تتدحرج معي باسترسال نحو الأسفل. يا لها من جغرافية غرائبية، مخروطية شديدة المنعرجات والمنحدرات كثيرة النتوءات والمنزلاقات كلنا كنا نواصل غوصنا المتدرج المتدحرج.. الى القعر!

طالت علي المدة حتى حسبتها بلا نهاية... وأخيرا حدث أمر غريب...لقد توقف الزمن لبرهة.. ثم أخذت تتناهي إلى سمعي أو أسماعنا... أصوات ارتطامات ... فلقد أصبحنا عدة أشخاص أو كينونات في شخص واحد.. كانت الأصوات واضحة والمرتطامات محسوسة.. ولا نكاد نراها في هذه العتمة الوجودية الخانقة. وكيف لنا ذلك ولم يكن يحيط بنا سوى العماء وأصوات مريعة تزحف نحونا من بعيد؟ أصوات غير آدمية بالتأكيد...لم تالفها أذن ولا خطرت ببال.. ها أنذا أصيخ اليها عن قرب.. متوجسا متحفزا وأنا أواصل التدحرج مثل الكرة. أخيرا توقف كل شيء. أحسست أنني لامست القاع ذاك الذي كدت أظنه بلا قرار.

يا إلهي أخذت أسترجع وعيي وذاكرتي.. وبدأت أستوعب حقيقة ما يقع معي. أخيرا تحقق ما كنت أخشاه وأريده بنفس القوة! إنه التناقض الملعون الذي ميز شخصيتي طيلة مراحل حياتي السابقة على السطح. نعم هذا ما يحدث الآن، إنني في طريقي الى الجوف... رحلتي الفريدة التي

لابد أن أكون أنا من استدعاها بمحض إرادتي، وقد تكون هي من اختارتني، وجذبتني بغوايتها التي لا تقاوم؟! وقد يكون السبب تلك المخلوقات والكينونات التي طالما تجاهلت سعيها الدؤوب لاقتحام وحدتي والتواصل معي على امتداد السنوات العجاف التي قضيتها بهوية غير هويتي منذ هجرت تلك الأراضي المطلسمة التي تحكي الأسطورة أن سليمان الحكيم كان أول من نفى إليها أمكر الشياطين وأعتى المردة.. فتعاقبت على تسييرها منذئذ سلاسل من الكائنات الغامضة يتولى مجلس كهنتها ودهاقنة مراسيمها حراسة قباب البوابات البعيدة والإشراف على تهجين الفطريين وتدجين المتنطعين من القطعان قبل التضحية بهم وإهداءهم قرابين للمقاولة عبر-الكونية "زيتا".

س

كنت هذه المرة في الطابق السادس.. أسفل الكراج.. أقرب ما أكون لبؤرة
الربع على بعد طبقة واحدة أسفل سافلين! بالقطع كانت تصلني أصداء
وأصوات المخلوقات الغامضة والوحوش المرعبة التي سكنت خيالي منذ
الطفولة واندمجت على مر السنين مع أسوء مخاوفي وأفزع كوابيسي
لكنني كنت منشغلا عنها بتأملاتي الماورائية الأخرى التي تفوقها رعبا
وغرابة. وجودي في الطابق السادس هذا اليوم كان بسبب عقوبة أنزلها
بي "المندرج" عندما باغتني وأنا أتصفح إحدى الكتب أثناء مزاويتي
لمهمتي الجديدة -التي لم تدم سوى دقائق معدودة- كصراف في كشك
الأداء.. كانت غلطة مهنية لا ريب فيها! ولكن ما العمل؟ لا شيء يوقفني
ولا أحد يمكنه أن يحول بيني وبين كتبي. إنه الجزء الأعند من كينوتتي
الذي لا يقبل التفاوض أو المهادنة. قال لي المندرج بلهجة ساخرة -وهو
يحاول انتزاع الكتاب من بين يدي- ...

**يبدو أنك لست جاهزا بعد للبقاء في السطح وإدارة شؤون
الطابق الأول.. الطابق الاجتماعي. لازلت غير مؤهل "لخدمة
الزبائن!"**

أجبتة وأنا أقاوم مسعاه متمسكا بضراوة بكتابي:

وماذا تريدني ان أفعل؟

**المهم ان تغرب عن وجهي! لا أريد أن أراك اليوم في أي من
الطوابق الخمس الاولى من الكراج.**

كأنك تقصد نفيي الى الطابق السادس حيث قلة الأوكسجين
وجمود الحركة؟

على الأقل لا أحد هناك سيراك تختلس النظر الى كتبك وربما
يمكنك ممارسة هوسك في غفلة عن العيون لكن عليك ألا
تنسى! إنه الإنذار الأخير وقد اعذر من اندر!

هكذا إذن مزيدا من الانحدار في انتظاري! أهو قدرتي الجديد أم لعنتي
التي تأتي أن تفارقني؟

كلما ما وقع. بعد ذلك تم بسرعة وعلى حين غرة بعد دقيقة واحدة
كنت أتدحرج ستة طوابق نحو الأسفل! وبعد دقيقة أخرى كنت ألتهم
الكتاب.. لم أكن أدري أن الكتاب هو من كان يلتهمني.. كان الجو خانقا
وكنت ما أزال حانقا ومتوترا والكلمات تتراقص أمام ناظري وأنا أدخل في
سديم غيبوبتي المتماوجة.. كنت بين بين.. بين اليقظة والمنام...

رحلة الجوف

السيرك آخر الزمان

ش

حين فتحت عيني.. هالني أن وجدت نفسي أسير وسط موكب من
السائرين والسائرات وأخوض مع الخائضين والخائضات. سألت أول
كينونة صادفتها بجانبني..

إلى أين ترانا سائرون أيتها الكينونة المستعجلة؟

رمقتني بامتعاض وردت بلهجة لا تخلو من استنكار مشيرة بأصبعها
نحو إحدى المنشآت الفخمة:

*هل جننت لا شك أنك تمزح.. من لا يعرف وجهتنا اليومية
المفضلة نحو المسرح الذي لا تنقضي عجائبه. إننا متجهون
إلى سيرك آخر الزمان...*

قالتها بحماس زائد وهي تواصل سيرها بانفعال لا تلوي على شيء.
اقتربت من المبنى الدائري الهائل شديد الفخامة كان شبيها بالمنشآت
والمؤسسات الحكومية والبرلمانية الأدمية وكان الاقبال عليه شديدا
وأجواء الصخب وصدى الأصوات المتداخلة والتهافتات المتعالية توحى
بطقوس المهرجانات الشعبية الفنية والرياضية... وأجمل ما في الأمر أن
الدخول كان بالمجان. لما رفعت رأسي نحو البوابة قرأت العبارة التالية:

من كل فن طرف ومن كل خدعة لون..

وزعت نظراتي البانورامية عبر الانحاء في ذلك المسرح الهزلي الجامع والشاسع فهالني ما لمستته من تنوع وتنافس ونشاط في صفوف الفرق الفلكلورية المؤتثة لهذا المهرجان الكوني البديع الذي كانت ترعاه المؤسسة الأخطبوط.. كل الفرق البهلوانية كانت حاضرة ومنهمكة في أداء فقراتها بتفان واحترافية عالية بداية بطابور المهرجين من متزلقين ومنقلبين على بطونهم ومنبطحين ومتسلقين ولاعقين.. كانوا يضعون على ظهورهم يافطات تحمل كلمات وأسماء رنانة من قبيل.. "حزب" "نقابة" "منظمة" و"هيئة مدنية" و"هيئة غير مدنية"... وغير بعيد عنهم في المكان الموازي لمحت نشاطا مكثفا "للمتطوعين" والمناضلين "النطاطين" بقمصان وأسماء براقية مثل "فيدرالية ديموقراطية حقوقية" و"معارضة شعبية" و"حركة دستورية" و"جمعية تطوعية". كانت جميعها تتبادل أدوارها الهزلية الساخرة والمثيرة للسخرية على السواء والتي تنتزع بين الفينة والأخرى تصفيقات حارة من جمهور المتعاطفين والمعجبين فاغري الافواه.. بينما كانت تتبارى "هيئات" مماثلة ثقافية وإعلامية "مدنية" و"غير مدنية" في استعراض قدراتها السحرية الخارقة في التضليل والتعتيم والتزييف وكانت وصلات الوعود المعسولة الكاذبة والمزايدات السخيفة والمغالطات "السمجة" أكثر العروض التي حظيت بالاستحسان حيث قال لي من كان يجلس إلى جوارى دون أن أسأله:

**هل تدري أن أفضل هذه الوصلات سيتم ترشيحها لنيل
الجوائز الكونية الرفيعة التي تجري مراسيمها ضمن أسمى
المهرجات الجوفية الموحدة التي يطلق عليها اسم الألعاب
الأولمبية البهلوانية الشيطانية للمكر والتدليس والتضليل؟!**

تطلعت الى الجماهير الغفيرة في محاولة لرصد درجة تفاعلها مع هذه الفقرات الإبداعية.. كانت المدرجات زاهية. اكتشفت أن الصفوف الأمامية تحتكرها النخبة من حاملي الأقنعة والمظاهر الإبليسية الرسمية تليها طبقة الكلاب الضالة والضباع المتلهفة المميزة بأصواتها المفزعة وأنيابها المكشرة ومن ورائهما مباشرة طابور البهائم البقرية المهجنة والحمير الناهقة والبغال الرافسة أما الصفوف الخلفية فكانت مخصصة كالعادة لقطعان الماشية "التي أتلفت مشيتها" من خرفان ونعاج و"ماعز أليف" بينما كنت أجلس وسط أسراب الصراصير النطاطة المتحولة من أمثالي! وبعد مدة طويلة من العربدة والشوشرة لاحظت قطعان الزرافات الفضولية وهي تتدافع مشربيه بأعناقها المتطاولة نحو نقطة ما من الساحة ولما حاولت بدوري التناول بعنقي أملا في إشباع فضولي كدت أكسره قبل أن أرى أفواجا من الكائنات العجائبية تتقدم الصفوف لاستعراض ذروة العروض وأمتعها على الاطلاق.. لقد جاء الدور الآن على نخبة المحترفين.. ومن غيرهم؟ إنهم كبار السحرة والحواة من أصحاب كرات "الحلول السحرية" وحاملي "الجرب الخفي" ومروضي

العفارية والتماسيح الشبحية. كان يتزعمهم أولئك النجوم من أمهر اللاعبين والممثلين "الدراميين" و"الهزليين" قادة الأحزاب والمنظمات والهيئات المنتخبة الموالية منها والمعارضة للأخطبوط. ساد جو مهيب من الصمت والترقب.. ثم انطلقت الفرجة! ومن أول لمسة من نخبة البهلوانيين تلك تأكدت من جدارتهم ومهاراتهم الاستثنائية التي ظلوا يحركون بها الجموع الصاخبة كيفما يشاءون يمينا وشمالا أو وسطا. انبهرت كثيرا للأساليب الخادعة والماكرة التي كانوا يحركون بها الجموع الهستيرية المهلوسة. لقد كانت لديهم بالفعل قدرات خارقة في التدليس والتمويه والتنويم مع مهارات مغناطيسية فذة وشديدة الفعالية. كانت المدرجات ما تزال تهتف بأسمائهم وتهتز لزخم العروض وارتفاع الإيقاع ما بين ثغاء ونباح وعواء ونهيق عندما انتابني موجة من الارتياح والحيرة إزاء هذه الفاتنازيا الغرائبية التي تهيأ لي أي عاينت مثيلا لها في حياة سابقة! إنها نفس العروض البهلوانية الهزلية والميلودرامية تتكرر في كل زمان ومكان! هي هي... تكاد لا تختلف هنا أو هناك.. كما فوق كما تحت.. كما الجوف كما السطح!. ثم بدأت أتساءل مع نفسي: أليس هؤلاء هم أعمدة المؤسسة الهرمية العابرة للأبعاد تمارس دورها الأزلي في ضبط إيقاع الجماهير الغفيرة من المجتمعات والقبائل والشعوب قبل أن يتولى سيرك "الجنون فنون" زرع أمصال المتعة وشريحة "الجدبة

الهستيرية "في شرايين الكينونات القطعانية المتكلسة؟ كان مجرد
سؤال بريء براءة ذلك الذئب الذي كان يخطر على بالي!

ص

في الطابق الثاني التحت-أرضي من الكراج. وقفت أسترد أنفاسي بعد
وصلة عمل متواصلة استغرقت ثمان ساعات مقابل أجر لا يغطي حتى
مصروف الجيب فكيف بالوفاء بالتزامات السكن والتغذية والتنقل وباقي
ضروريات العيش. كنت منهمكا في فك شيفرة معادلة بدت لي أشبه
بالمستحيلة منذ البداية! تساءلت بامتعاض:

كيف يعقل لإمبراطورية ليبرالية بهذا الحجم وبكل هذا التقدم والإزدهار
والتحضر أن تعامل الكائنات الميكروسكوبية و"الصرصورية" بمثل هذه
الدونية التي قد لا نجد لها مثيلا حتى في أسوء النماذج المتخلفة من
منظومات الحكم الجبري؟ وكيف يا ترى تمكن كل من سبقني ممن هم
مثل حالتي من الصمود والتأقلم مع طاحونة متوحشة كهاته؟

توقفت بأفكاري عند هذا الحد حتى لا أغوص أكثر مما أنا فيه من كآبة..
لم تكن المسألة شخصية فقط بقدر ما كانت سؤال وجوديا استنكاريا!

تقدمت صوب المصعد الأتوماتيكي وكلي قرف. كان في نيتي التوجه الى
المدخل الرئيسي من البناية ومنه الى مقهى "ستارباكس" لاقتناء فنجان
الأثير من القهوة "دابل شات إسبريسو". وما أن انغلق علي باب المصعد
حتى تهيأ لي بأنني تجاوزت وجهتي وأخذت أصعد أعلى وأعلى من دون

توقف. كان المصعد قد انفصل بالفعل عن البناية وبدأ يشق طريقه نحو السماء ثم حلق بي فوق غمامات وأجواء كثيرة لم أعد أميز معها كم من مسافات قطعت ولا أية قارات أو أراض من الأرضين اجتزت؟ كنت في معظم الطريق مغمض العينين تفاديا لرؤية ما لا تحمد عقباه. وأخيرا توقف المصعد ثم اختفى ولم يعد له أثر. ووجدتني أخطو بقدمي صوب إحدى الغمام الشاردة. لم أشعر بأدنى أثر للشمس من فوق رأسي. كان هنالك نور ضئيل يتسرب من حيث لا أدري، لم أعد أتبين من خلاله سوى ملامح باهتة لأشباح النهار وخیالاته. صوبت نظري نحو الأسفل فرأيت خلائق النهار تقوم بما اعتادت أن تقوم به خلائق الظلام. كانت تلك المخلوقات -وبعضها كان يبدو لي أشبه بالآدميين- يقومون بأفعال شنيعة لا تقترب عادة إلا خفية وتحت جناح الظلام. استغربت في أول الأمر ونظرت من حولي كان أولئك القوم منهمكون في مزاولة أنشطتهم "المشبوهة" بكل حرية واطمئنان! لم أكن واثقا من حقيقة الزمكان الذي كنت أطل عليه من علياء سحابتي الشريفة هل أنا في زمن المساواة في التهاوش والتهارش بين الدواب والبشر أم ماذا؟ لم يكن يجدر بي أن أتابع التطلع والنظر فيما لا يعنيني مما يقع تحت السحاب لهذا قفلت راجعا الى غمامتي الأولى الشاردة، وصممت أذني وأقفلت عيني آملا أن أفتحهما في المرة القادمة على مشاهد أرقى مما كان يجري تحت قدمي.

أمة الكرة.

ض

انتظرت طويلا وأنا أمتطي تلك الغمامة الشريفة قبل أن أفتح عيني على مصراعيها دهشة. وجدتني أتطلع الى البحر الممتد أمامي والنهرين الجارين من حولي، أولهما غربي وثانيهما شرقي. كانت المياه مكتظة بالحركة ولم أكن أرى منها سوى الآلاف من الرؤوس العائمة في المياه تنبثق منها عيون تلمع ثم ألسن تخرج وتدخل لاهثة من أفواه تلك الرؤوس المتزاحمة التي كانت تبدو في غاية التركيز والتوتر. وكانت تعقبها بين الفينة والأخرى صيحات وهتافات متصاعدة. تأملت مليا في تلك الرؤوس المتطايرة فوجدتها مجرد رؤوس مكورة كالبالونات وكرات أخرى مختلفة الأحجام والألوان والتصاميم. فكانت تتقاذف هنا وهناك. ثم يعقبها صراخ شديد وهياج أشد فهتافات وأناشيد متواصلة. كنت ألتفت حولي فلا أرى مصدرا محددًا لكل هذا. كان يأتي مرة من الشرق ومرة من الغرب، ومرة عن يميني وأخرى عن شمالي. ثم ما تفتأ أن ترتفع كرات مستطيلة ومفلطحة وبأشكال مختلفة صغيرة ومتوسطة ولها عيون مشدوهة ثم تعقبها هتافات وتصفيقات وصراخ وضجيج. كنت أقف كالمذهول لا أكاد أستوعب ما أراه، فما أن أحرك رأسي في اتجاه حتى تجذبني حركات من الاتجاه الآخر، واستمررت على نفس الوضع لمدة من الوقت حتى أصابني الغثيان وأوشكت على فقدان وعيي وكاد رأسي أن ينفصل عن جسدي ويندمج مع لعبة الرؤوس الكروية المتطايرة

المتشاكسة تلك. ثم أخذت أتمايل مرة يمينا نحو النهر الأول أو شمالا صوب النهر الثاني وكلاهما يوشك أن يختنق برؤوس وأحجام كروية مختلفة لا تقل نطا ومشغبة عن سابقتها. قلت مع نفسي إن التطلع على هذه المشاهد من فوق لا يكفي حشرتي والأفضل لي التنازل عن عجرتي العلوية والنزول من برج سحابتي الجوفية لاستكشاف حقيقة الامر..

وجدتها من أغرب الامم كل ما لديها مكور أو كروي مستدير وأحيانا بيضاوي مدحو انسجاما مع علوم زمانهم وفرضيات علمائهم المقدسة والمفروضة.. كانوا ينعنونها في جوف الأرض بالأمة السعيدة أو الشعوب المبتهجة. كانت كل معاركها وصراعاتها تجري في ساحات خضراء أنيقة التصميم ومكتملة المرافق. تهب لمؤازرة فرسانها وأبطالها جموع عارمة من أفراد القبيلتين المتناحرتين، يتركون أشغالهم ومصالحهم ويبدرون الغالي من أموالهم حتى لا يخلفون هذه المواعيد الهامة والحاسمة في تاريخ تلك القبائل. كانت المعارك عادة ما تتم بدون أسلحة ولا تستعمل فيها الأيدي الا نادرا. معظم المبارزات الفردية والجماعية كانت تتم بالأقدام والرؤوس والعقول أيضا. وقلما خلفت معاركهم قتلى وإنما معطوبين فقط رغم كثرة المواجهات التي أصبحت شبه يومية. كان لكل قبيلة شعار وراية ومهووسين وزى موحد لفرسانها يميزهم عن غيرهم. وكانت القبائل التي تتشكل منها "أمة الكرة" لا يحصى عددها وتنتشر

في كل القرى والأحياء والمدن، وكان أبطالها محبوبين لدرجة العبادة ومنهم من نصبت لهم التماثيل وقدمت لهم القرابين. كان معظمهم من أثرياء الحرب (العبثية) هذه. اختلف المؤرخون الكرويون في تحديد الأمم السباقة في مدارج هذه الحضارة...منهم من أكد أن أول موقعة جرت في التاريخ كانت حول كرة بياضوية أو مستطيلة(مدحوة) ومنهم من يدعي أنها كانت كروية مستديرة. فيما كشفت آخر الحفريات أن المسألة أقدم من ذلك بكثير وأن نتائجها -لو نشرت للعلن-سوف تقلب موازين التاريخ الكروي رأسا على عقب بعدما توصل الباحثون الحفريون الى أن الصراع كان في جذوره يقوم حول الجماجم البشرية التي كانت تسقط في المعارك ويقوم نخبة من المتوحشين باللعب بها. لهذا حذر العلماء المسلميون المتشبعون بالروح الرياضية من مغبة تكرارا أمثال هذه الوقائع من باب "التاريخ يعيد نفسه" وهو في هذا الشأن لا يتكرر سوى في نسخته البشعة وأحداثه المخزية! ولو تنبهت القبائل الكروية المتناحرة المعاصرة لعراقه هذا الاكتشاف لطالبت بدمجه في قوانين اتحادها الكروي الكوني. كما ازدهرت أنواع أخرى من الفنون الكروية المختلفة، لكن الغاية ظلت واحدة وهي تكريس طقس الكرة كعقيدة موحدة لكل القبائل لتكون الغاية هي الكرة نفسها.. تلك الفقاعة الجلدية المليئة بالهواء. صاحبة الطقوس الكونية متكاملة الأركان بشعائرها وشعراءها وفتاواها ونظامها الفقهي بمحلاته ومحرماته. وبعلمائها كذلك. كانت

هي الموضوع الوحيد والرئيسي في نشرات الأخبار في مختلف وسائل الاعلام ليل نهار لدى أمم الكرة، بل أمست الشغل الشاغل لسكانها وشعوبها والمصدر الرئيسي لأمجادهم وأفراحهم وأحزانهم كما هي المورد الرئيسي لاقتصادهم الذي كانوا يدعونه باقتصاد حرب الكرة. وقد حدث في أواخر جولتي أن استوقفني أحد سكانها معانقا ومرحبا وهو يقول:

**أهلا بعودتك يا من كنت الى عهد قريب واحد من وجهاء
ديانتنا، وكنت من الأوفياء المؤمنين برسالتها الكونية النبيلة
والخالدة. لا أدري أية لوثة وقعت لعقلك وأي نكوص حصل
لك في إيمانك حتى ارتددت عن عقيدتك الكروية؟**

التفت اليه مندهشا:

لا أذكر شيئا مما تقول يا هذا ولا أفهم ما تعنيه؟

نظر الي مليا ثم التفت الى جماعة من الناس كانوا مارين بقربنا وأخبرهم بالأمر فتسابقوا نحوي بحماس وانفعال والتفوا حولي ثم رفعوني فوق أكتافهم صائحين مهللين مؤيدين كلامه ومحتفيين بعودتي الى "عقيدتي الصحيحة".. بدا عليهم وكأنهم يعرفونني تمام المعرفة! ولما لمست

فيهم مبالغة في تكريم لا أستحقه ما كان مني إلا أن انتزعت نفسي من
بينهم انتزاعا محتجا بالقول:

مهلا يا جماعة عن أية عقيدة تتحدثون! إنها مجرد لعبة لتزجية
الوقت وترويض العضلات. هكذا كانت بالنسبة لي عندما
مارستها وهكذا هي بالنسبة الي اليوم بعدما غادرتها واعتزلتها.

توقفت الجموع عن الصياح فجأة وأخذوا ينظرون نحوي في ذهول وعدم
تصديق ثم بدأ الأمر يتحول الى همهمات وغضب مكتوم. حتى شككت
أنهم يضمرون لي شرا فسارعت الى مغادرتهم قبل انفجار الوضع وأنا
اردد في سري لا إله الا الله! بينما سمعت الآخرين يصرخون ملء
حناجرهم ويلوحون بقبضاتهم في اتجاهي مردين.

لا إله الا الكرة، لا إله الا الكرة.

بعد مغادرتي "لأمة الكرة" لم أعد أرغب في استطلاع أحوال باقي الأمم المشابهة لها ممن تدين بأخوات الكرات الأخرى وتتبارز في منافساتها وحروبها الكروية بفنون قتالية مختلفة لكنها -على الأقل- كانت أساليب راقية ومهذبة قياسا بالحروب والمعارك الطاحنة التي تركتها ورأيي فوق سطح الارض، بين الأمم المستعملة لكرات نارية وأخرى معدنية محشوة بمواد مدمرة أعداد قتلها وضحاياها يفوق الخيال. عندما طاف بذهني هذا الخاطر استدركت موقفي وخمنت بأن أمم الكرة رغم انغماسها في ملامحتها لا يجدر تصنيفها ضمن أكثر الأمم وحشية في مجموع حضارات الارضين السبع...مقارنة مع ما يقع فوق السطح من مجازر وكوارث بتدبير وتخطيط من قاطني مدينة الرعاع والصعاليك الجوفية.

(3)

الـخوف

انكفئت على ذاتي مرة أخرى متهيبا من مواجهة نفسي بحقيقتها العارية وحقيقة ما ينتظرني. انطويت على خلجات جوانحي ولما تهدأ جراحاتي الوجودية وأحزاني العتيقة. لملت أشلائي البالية ثم تقوَّعت في خنادق صدقاتي. متقفيا آثار السحالي الزاحفة ما بين كينوناتي وتلك الشخصيات المتشاجرة على فتات أوهامي. كانت بقايا الرهبة والرغبة تتعاركان في طريق رحلتي المجهولة والمنذرة باقتراب الموعد الذي تفاديت خوض تفاصيله ورفضت الإعراف بحتمية البوح والمكاشفة. كنت أمضي... زاحفا تارة مرتدا تارة أخرى ثم أسبح وأموج أغطس وأهوي.. كنت في طريقني للمواجهة مع أسوء مخاوفي.

ط

عندما أكون أنا ولست أنا - وكثيرا ما أكون- تنفتح أمامي بوابات... بعضها علوية والأخرى سفلية. تارة أرتقي الأسباب متحررا من ضغوط الجاذبية وأوهامها، أسري ما شاء الله لي أن أسري... مع النسيمات والكينونات والأرواح الشفافة. وطورا أغوص في الأعماق فأتوغل ما استطعت في جوف الكون بأسراره ولياليه الغامضة مقتفيا هسيس الكائنات الخفية مستمدا جذورا متجددة لأسرار ومعاني لا أتذكر لها مثيلا في الأرضة المعتادة من الأسواق البشرية. أدري أنني من صنف الغرباء المغفلين الذين لا مقر لهم.. ولا قرار... فلا أرض تقلهم على السطح ولا سماء تظلمهم تحت السفح. لكنني في عز غربتي ووحدي قلما أكون لوحدي! مرة كنت أتذكر، ومرة كنت أنسى، وأحيانا كنت أدعي بأنني لا أراهم أو أشعر بحضورهم! لكنهم كانوا دوما هنالك. يلتفون من حولي ويتعقبون أثري في كل خطوة أخطوها وفي كل حركة أتحركها وحتى في كل سكينة أستكينها. هل كنت مهما أو مميذا إلى ذلك الحد؟ أم أن من وراء ما جرى ويجري خفايا وألغاز مجهولة وغامضة يحرك خيوطها أولئك الذين أصبحت طريدتهم المثلى في ساحة الصراع الشامل للسيطرة والتدجين بين تحالف كينونات الأبعاد المتربصة وأبالسة الشفط الطاقى والروحي؟ لماذا يترصدونني في نومي ويقتحمون أحلامي ويفتشون في

نواياي وأفكاري ومشاعري؟ تراهم فشلوا في فك شيفرة ألغازي ولم يتمكنوا من إدراك طويتي؟ هل حقا في سيرتي ما يشكل خطرا عليهم حتى وإن كان ما لديهم لا يحظى باهتمامي؟ فلماذا لا يطبق كلانا الآخر؟ لم أكن لأبالي بهم وبنشاطهم لولا أنهم باتوا يسدون منافذ الهواء في وجهي! ولم أكن لألتفت إليهم وهم المهووسين بالمطاردة والمحاصرة والمصادرة. كانوا لا يتورعون. وكان علي أن أمضي سالكا نفس المسالك مدعيا السير نائما أو منوما. كنت أشق طريقي منفردا كالذئب الوحشي المتوحد. وكنت لا أنام إلا وعيوني مفتوحة. ولما كان يغالبني النوم وأغالبه فإن قلبي لم يكن لينام... فقلبي لا ينام. ولهذا جازفت لاستقصاء ذلك النبأ الذي يهيم تلك البقية من أحياء السطح ممن لازلت أحبهم وأعزهم.

كنت أجاهد نفسي لكنس الطابقيين الرابع أو الخامس في قعر الكراج، وكانت الساعة تشير الى الثالثة بعد منتصف الليل! كنت وحيدا كالعادة! وكان علي أن أتخلص من كل نفايات وقاذورات من صرت أنعتهم في خيالي بالصعاليك والرعاع... أولئك الذين يتركون المراحيض في علبتهم الليلية التي يسهرون فيها ويعربدون إلى وقت متأخرا ثم لا يحلو لهم التبول ورمي بقايا طعامهم ونفاياتهم سوي في قعر بقعتي الجوفية هذه. كنت أدرك أن لا مجال لتصويب الوضع كان أغلبهم يختبئ من عين كاميرا الدجال -أو الديجيتال لا فرق- ويفرغون حمولتهم الزائدة من الكحوليات محصنين بالعبارة التاريخية (الزبون دائما على حق). والواقع أن الزبون يكون دائما على حق في إمبراطورية المقاوله الأخطبوط حتى لو تبول عليك أليست نفسها عبارة "خدمة الزبون" هي اليافة المقدسة الرئيسية التي بنت عليها المصفوفة أمجادها الاقتصادية؟ كانت هذه الأفكار تطوف بذهني الشارد المشتت وأنا أكد في الكنس وأجد اجتهدا لم توازيه إلا لعناتي التي أخذت أصبها وأوزعها يمينا ويسارا بكل شفافية وديموقراطية وروح رياضية على كل من كان يتبادر طيفه إلى ذهني في تلك اللحظات المريرة. لم أكن لأميز فيها بين أمير أو حمير ولا بين شرق أو غرب.. ولا بين ليبرالي أو اشتراكي ولا شيوعي أو ديموقراطي ولا ثيوقراطي أو علماني.. حدثي كان أم رجعي.. كلهم صاروا

سواسية في تلك اللحظة الجوفية المفصلية.. لم أفكر في التمييز فيما بينهم لا على أساس عرق ولا لون ولا لغة ولا إيديولوجيا. لم تكن تلك من طبيعتي على أية حال.. كنت منسجما تماما مع روح الدساتير التي بنيت عليها أعرق ديموقراطيات العهد الجديد والعهود التي سبقتها. استمررت في صب لعناتي هكذا حتى استنزفت مخزوني من الشتائم... وفجأة خيل لي كأنني ألمح بابا جانبيا صغيرا لم يسبق لي رؤيته من قبل. اقتربت منه ودفعته قليلا يتآكلني الفضول! وإذا بالباب يفتح على مصراعيه على ساحة واسعة وعريضة ومن فوق رأيت لافتة عريضة مكتوب عليها: مدينة الصعاليك والرعا. تقدمت في البداية بحذر لكنني آنست أجواء ووجوها مألوفة فنسيت نفسي وانخرطت مع الجموع... كانت معظم الوجوه التي أصادفها وجوها لأشخاص خبرتهم جيدا في حياتي السابقة على السطح. كان منهم حكام وأمراء ووزراء ومدراء وأعيان ووجهاء ورجال أعمال (لطالما كانت لدي حساسية خاصة مع هذا الصنف من المهن). كانوا باختصار هم صفوة مجتمعاتهم وأصحاب اليد الطولى والكلمة العليا والنافذة. وكان من بينهم أيضا مشاهير من عالم الفن والرياضة والإعلام والمجتمع المخملي (الذين يخملون كل شيء) وعدد لا يحصى من المحامين واللصوص "القانونيين" و"ضباع" المثقفين والإع "لاميين" المتحلقين حول الموائد المستديرة وكذا "بعض" الأوغاد من الأصدقاء والأقارب الذين أفردت لهم في السابق عناية خاصة وبواتهم

مكانة لا تليق بخبثهم وجبنهم فنالوا مني ودا لا يستحقونه! لم يسعني إلا النظر إليهم بإشفاق وامتعاض فيما انتابني الحيرة والدهشة من كل هذا الحشد غير المتجانس الذي أراه أمامي يتدافع مثل كتلة لزجة من الديدان...

ما الذي جاء بكل هذه الزمرة من الأفاقين إلى قعر هذا الكراج؟ أقصد هذا القعر من أسفل سافلين؟ حتما مكائهم ومكانهم ليسا هنا؟ فما الذي يحصل لهم؟ وما الذي طوح بهم من أعالي أبراجهم إلى قاع المدينة الحقيرة الملقى بالصعاليك والرعاع؟ متى يستحيون ويتوقفون عن ملاحظتي في هذا الحضيض الوجودي؟

لا شك أن وراء كل واحد منهم قصة وسبب؟

هكذا جاءني الرد من حيث لا أدري ولم يكن يهمني... بل واصلت الإصغاء. إلى ما يقوله هاتفني الخفي:

**قد لا يكفيك عمرك كله كي تقف على حكاياتهم ومآسيهم
والمآسي التي تسببوا فيها! فإذا لم تصدقني فما عليك
سوى اختيار نموذج واحد منهم.. هيا تأمل في حالته وقل لي
ماذا ترى؟**

قلبت نظراتي بين أول فوج من أفواجهم، وكانوا قرب بوابة العار. فتعرفت عليهم من فوري، كانوا هم أنفسهم شيوخ وحكام قبائل "الويل" الذي لوثت آباره ومجاريه كل نقطة من مدائن السطح. كانوا هم أنفسهم أولئك الحفاة العراة الذين يعربدون أمامي في هذه الساحة الملعونة يكادون لا يختلفون في صورهم وأحوالهم هنا عما كانوا عليه هناك... لكنهم كانوا أكثر شبها بالشياطين التي ما فتئت تؤثث كوابيسي الليلية والنهارية على السواء. أدت وجهي إلى الناحية الأخرى حيث المنطقة الحميمية المقربة فراعني كثرة النظرات التي كانت ما تزال تتميز غيظا وغلا مني ومما تبقى في حوزتي وما تبقى سوى شظايا كبرياء منتهي الصلاحية واعتداد بالنفس لا يجارى! سارعت إلى الإلتفات نحو هاتفي وأنا أغالب قرني واشمئزازي ثم بصقت على الأرض المجوفة مرددا في سري.. لم تعد لي حاجة ولا رغبة في معرفة المزيد من أمثال هذه النماذج من الرعاع الذين يتسكعون في هذه المدينة البئيسة المنكوسة! خيرا لي ألف مرة العودة إلى طباق الكراج السبع واستئناف ما ينتظرنني هناك من كنس "لفضلات" الرعاع الآخرين الذين لا يقلون عن هؤلاء عردة وإن كانوا لا يستطيعون مجاراتهم صعلكة ولا وضاعة أو خساسة!

ع

استفتت مذعورا على مشهد بات يتردد أمامي باستمرار (داخل الكراج وخارجه) كلما توغلت في رحلتي في أعماق البرزخ السفلي...كانت المواكب تواصل تقاطرها المسعور. لقد كانوا ينسلون من كل صوب وحب.. كانت وجهتهم هذه المرة نقطة ما من السطح...من هؤلاء؟ أكل الخلائق والدواب أم ما تبقى منهم؟ تواصلت مرحلة الفرز والتصفية... كل قوم وعشيرة وعرق أو لغة أو قضية مشتركة يتخذون في صفوف خاصة ومتراصة ويجتروا ببلاهة شعاراتهم الزائفة القائلة بأن الأمر لا علاقة له بالعرق أو الدين أو اللون وإنما الأمر حتمي ولا بد منه! نحن الآن في نهاية حلقات آخر الزمان.. معظم العلامات ظهرت وأبرز النبوءات تحققت. ولم يبق سوى القليل. حتى الشمس تغيرت سحنتها وتكررت إطلااتها الغاضبة على الكون وهاهي تتوعد بالشروق من المغرب! وها هي الجبال تهدد بالإنفجار والإنهيار على الرؤوس العنيدة والمتجبرة! وهاهي البحار تنذر بإرسال نيرانها المسجورة الرابضة في أحشاء مياهها الهائجة!

لم تشرق الشمس غربا ولم تغرب شرقا بعد! ولكن ساكني الأكوان باتوا يدركون أن مصيرهم قد تقرر منذ مدة مع استمرار تعاقب نذائر السوء. لقد مرت سنة الدخان الرهيبة مخلفة آثارها المدمرة على ثلث سكان

سطح الأرض وضرب النجم المذنب الطارق الأرض فشقها وأغرق ثلثها
الأخر بطوفان عظيم...لم يتبق سوى القليل من الحطام والخرائب...
والناس أو ما تبقى منهم صاروا لا يتجرؤون حتى على مجرد رفع رؤوسهم
إلى السماء تهيبا ونكوصا...كانوا كلما فعلوا ذلك إلا وقصفتهم الصواعق
والعواصف التي لم يكن لهم قبلا بها. كانوا يتضرعون إلى الله كل بلغته
وأسلوب عبادته الخاصة ورؤوسهم مطأطئة مدركين في قرارة أنفسهم ما
جنت أيديهم وما أورثهم آباءهم وأجدادهم من ميراث لعين. ألم يكونوا
في البداية أمة واحدة فاختلّفوا وتفرّقوا. ثم تقوقعوا وتخذقوا منقسمين
إلى عشائر وقبائل وقرى منكمشين على معتقداتهم وأجناسهم ثم أخذوا
ينتشرون ويختلطون ويتناسلون ويتهافتون ويتهاشون مشكلين نظاما
جديدا للكون اختلط فيه الحابل بالنابل والأبيض والأسود بالأصفر حتى
لم يعد بالإمكان التمييز بينهم. لقد شكلوا كتلة واحدة متشعبة ومزيجا
هجيناً من كل الأعراق والأجناس...كلهم محشورين في نمط واحد من
العيش قبل أن يتحولوا إلى فقاعات وجودية داخل بوتقات هجينة
مستهجنة ممسوخة الكيان. كان لديهم كل ما يرغبون فيه وتيسرت لهم
ما تعسرت على من سبقهم من حضارات فاستمتعوا بكل شيء وبدون
حدود ولا قيود ولا محرّمات وحظوا بكل ما رغبوا به حتى أكثر أهواءهم
ورغائبهم سفالة وجموحاً أدركوها فحققوا درجة من الإكتفاء غير
مسبوقة. أصبح الذكور منهم مكتفين بالذكور والإناث بالإناث وتحول

صغارهم إلى مجرد أدوات ولعب بيولوجية ووسائل ترفيهية وتجريبية في سنة النشوء والإرتقاء...كادت حياتهم أن تصبح "مثالية" لولا شيء واحد افتقدوه بشدة بعدما أضاعوه... إنه الإمتنان للفطرة. كان الإنسان داخلهم يحتضر وقيل انه مات واختفى إلى الأبد بعدما تم تهجينه وتعليبه وتشبيئه من خلال ما أبتدع من وسائل ومخترعات وبكل ما استمسخ واستنسخ من مستنسخات وملقحات عضوية ومادية ومعنوية -مثل المشاعر والأفكار- كل ما هو فطري وأصيل تعرض للتزييف والتحويل والتحويل لم يصمد منها سوى المركبات والمصنعات والمحفظات المتراكمة في مخازن المقاومة "زيتا" التي باتت تحمل حصريا الطابع الرسمي الفريد والوحيد تحت العبارة اللازمة... "من صنع الدجال".

(4)

ناموس الأزمنة

جل أولئك الذين لم يجرؤوا على مغادرة قارعات الطرق وأرصفة الإنتظار صاروا مستهدفين بطوابير الحشر التي أمسّت طلائعها في الأفق بادية للعيان.. ومن خلالها ثمة طوابير زاحفة.. تبدو لمن لازال بوسعه الرؤية على هيئة بروفة مماثلة ليوم الحشر. إنها سنة التعاقب في سيرورة المراحل وحتميات ما بعد الانتظار.

غ

هل صحيح أن كل من على سطح الأرض من أمم وحضارات
وكائنات وعمران وأعمال وأحداث إلا ولها نسخ موازية في
الجوف؟ وهل هي نسخ معدلة ومنقحة أم فقط أكثر شفافية؟
وإلى أين تمتد جذور وظلال الحضارات والأمم، بكل أفعالها
وانفعالاتها وأفكارها وعواطفها؟ هل حقا تنعكس بأشكال
وأرواح وأصداء مختلفة تحكمها قوانين مغايرة وطباع متناقضة
متنافرة؟

هكذا كنت أحدث نفسي وأتساءل كواحد من أشباه فلاسفة آخر الزمان
وأنا أتأهب لإنهاء نوبتي الليلية في ثالث أيام العمل. كانت الساعة تشير
إلى الثالثة بعد منتصف الليل-دائما وأبدا- وأنا في أقصى درجات الوحدة
والعزلة واليأس. في الحقيقة لم أكن لوحدي تماما فقد كانت هنالك
عشرات من الكينونات اللامرئية التي تتحلق من حولي وتحقق في وجهي
بل وتحصي كل حركاتي وسكناتي وكنت -كالعادة- لا ألقى لها بالا ولا أعبأ
بها إطلاقا ولا بمحاولاتها السخيفة لإفزاعي أو إرباكي! كنت أدعي جهلي
التام بوجودها بينما أسخر منها في سري وهذا ما كان يبعث القلق في
نفوسها فتترد خائبة مترددة وتختفي في ثنايا الظلمة أو تحت عجلات
السيارات المركونة في زوايا المرأب. ما كنت أنتظره بالمقابل بل وأتوق

إليه كان أمرا آخر. ثمة طائف مختلف وغامض لا يحل بالمكان قبل ان تسبقه الدوامة و"بوتقة الرؤى" وكانت هذه البوتقة الدوامية هي وسيلتي المثلى لعبور الضفة الأخرى من الملكوت البرزخي المجهول. كانت تقودني حيثما ترغب أفكارى وأحلامي وتخيلاتي. وليس ما تقترحه علي مشاعري السفلى المسكونة بأشباح الطفولة المبهمة وهواجس النفس المكلومة والمفطورة على غزوات كينونات الظلام. كنت أدرك أنني على موعد مع رحلة جديدة ومجهولة وسوف لن تمر إلا هنيهات حتى أجد نفسي ممتطيا رياح الدجى الموجية بذبذباتها "الجوف- مغنطيسية" صوب المدن الخلفية القابعة ما وراء عالم الزيف والضلال. وذلك ما تحقق وبأسرع مما كنت أتوقع.

في اللحظة الموالية كنت أشرف على مدينة غريبة، فاتنة الأضواء متلاثلة حمراء فاقعة ثم زرقاء أسرة. أصداء موسيقاها جاذبة ومزيج من الغناء والثغاء ينبعث صداه ويطرق مسمعي وأنا على مسيرة أميال. جذبتي الاجواء الصاخبة ولم أستطع مقاومة فضولي وشغفي السابق بالحياة، فأنحدرت مسرعا نحو تلك الاضاءات الخافتة والهمسات المغوية والهمهمات المتلاحقة. ويا ليتني ما فعلت! لقد أصابت تلك الأجواء الهفيفة شظية من شظايا ذاكرتي، ونقلتني رغما عني الى أجواء من مشاهد شبيبتني.

شقت طريقي متحمسا وبينما كنت أهم بالغوص والاندلاق في ثنايا
الحشود المتراقصة انبرى نحوي هاتفني مذكرا ومحذرا:

لا تنسى أنك مقبل على اللقاء مجددا مع خطاياك السابقة؟

أجبتة مستنكرا:

ماذا تقصد بالضبط؟ أمنياتي المحققة منها والضائعة؟ أم
إنجازات أهوائي الجامعة؟

قال لي حانقا وهو يقودني نحو الجموع الهائجة:

بل إنك على موعد مع نتائج أوهامك وعواقب أمنياتك البائسة.

اخترقت سبيلي مستصغرا ما أسمعته ومهونا على نفسي ومرددا في
سري...لم تكن أحلامي بذلك السوء... مجرد أمنيات في العشق والشهرة
والمال والنفوذ أدركت بعضا منها بكدي واجتهادي، حتى لو لم يكن
نصيبي منها بتلك الغزارة المنشودة. وعندما انتبهت لنفسي وأنا وسط
الجموع تفاجأت باختفاء أصوات الموسيقى الصاخبة والغناء فيما كانت
الخلائق والكائنات تتدافع أمامي ومن حولي نحو باب صغير بعيد والكل
يتسابق للوصول اليه قبل الآخرين. فالتفت وسألت الذي بجواري:

ما الذي يحدث هنا؟ وما سبب انقطاع أصداء الموسيقى
الاحتفالية؟

نظر الى نظرات متهكمة ساخرة...

لعلك أنت أيضا قد ابتلعت الطعام؟ ليست تلك الأصداء التي
تناهت الى خيالك سوى سراب الحقيقة وشظايا وقائع
لملمتها الذاكرة. تلك من جذبك الى هنا وقادك الى حيث
المحاسبة والمحاكمة وكلنا حتما سيؤدي الثمن؟

سألته مستنكرا ومتوجسا

ماذا تقول يا هذا أبهذه السرعة باغتتنا يوم الحشر والحساب؟

لا! ذاك يوم مشهود لا قبل لنا به ولا علم لي بموعده. هذا
مجرد يوم الأخطاء والفلتات الصغيرة، يمتحن فيه أولئك
الذين لازالت لديهم ذرة من ضمير وفرصة لاستدراك ما فات،
ويبدو أننا منهم وهذا على كل حال هو الخبر الأقل سوءا.. أما
الأسوء فما زال ينتظرنا، وأهواله توازي ثقل ما اقترفناه خلال
حياتنا فوق السطح.

ما أن انتهی من كلامه حتى وجدتنی أتفرس فی عینیه مستغربا،
مستقصیا قصده ومرامیه.. اجتاحنی إحساس غریب باننی أعرف هذا
الشخص... كان یشبهنی بشكل لا یصدق ثم سرعان ما اختفت ملامحه
وتلاشت. لم یبق منها سوى أصوات صاخبة یضح بها عقلي، فیما كانت
هواجسی تتراکم على صدري فتوشك أن تخنق أنفاسی. أخذت أغلب
حیرتی، وتلفت من حولی صائحا باحثا متسائلا فی هستیریا متواصلة:

من أنت؟ ومن أنا؟ وأین نحن؟ من أنتم.. من أنتم.. من أنتم؟

انبلج صوت هامس من داخل رأسی یقول لی

*إهدأ یا هذا! لا تفضح نفسك.. ولا تفضحنا! ما أنا سوى قرینك
وشریكك. ومصیري هو مصیرك... فی كل ما اقترفته واقترفناه
معا. عليك أن تساندي لأسندك. وإیاك أن تغدري. إن فكرت
فی توریطی فاعلم باننی أول من سیورطك.*

مدائن الملائكة السفلية

ف

ظلت الجموع المتوافدة والمتراكمة تتساءل عن جدوى حشرها مرتين! متمسكة بصمتها المعهود وصبرها القبيح منكفئة على نفسها لا تحرك ساكنا ولا تتحرك فيها سوى النظرات. أما الحاشرون وأزلامهم فكانوا سريعي البديهة والحركة وكثيري النشاط والضوضاء. واثقين من أنفسهم ومما يفعلون. كانوا ينظرون الى هاته الجموع المتقاطرة نظرة دونية وكأنهم مجرد قطعان من دواب بلا حول ولا قوة يسوقونهم ضمن ثالوث جبري مؤبد ما بين الإسطبلات والمراعي والمسالخ. جل ما كان يحفزهم هو نفس الهراء والجشع المجنون الذين ورثوه عن أسلافهم.. إنه حب التملك والسيطرة واستغلال الغير.. كان لهم مشروعهم التاريخي الأزلي وكانت الخطوة التالية التي باتت على الأبواب هي الحلقة الأخطر في تلك الحقبة من العهد الأخير. باتوا يحشرون الناس لقيادتهم نحو مهاوي اسطبلاتهم المتخذقة عشرات الأمتار تحت الارض وتؤدي اليها مئات الأنفاق المتشعبة والمجوفة. كانت منتشرة في مناطق متفرقة من الجوف وتحمل اسم "مدائن الملائكة السفلية". كانت تستخدم كمرابض ومستوعبات لشفط الطاقة البشرية. كان قدر هذه البقية من الادميين أن يخضعوا لأقسى أنواع السحل والتنكيل والتعذيب والإستغلال لاستخراج أفضل ما بقي لديهم من طاقة وروح إنسية يتم امتصاصها وعصرها من طرف كينونات هجينة وأخرى غريبة وغامضة قادمة مما

وراء الأبعاد "الإنس-جنية" التي كانت تعتبر الطاقة الإنسانية الفطرية هي أعلى وأندر الطاقات الكونية الحيوية. وهي نفسها مصادر الطاقة البديلة والمتجددة التي يحتاجها مشروعهم الجهنمي الأخير. لهذا كانت جل المنازعات والحروب والشور والقتل بسبب الهوية والتحريضات على القتل بين بني الإنسان من ساكنة السطح وقاطنة الجوف تتوخي نفس الغاية وهي شفض الطاقة لكن الجديد والطارئ في الأمر حددته متطلبات المرحلة الأخيرة من العهد الجديد التي ارتفعت وتيرة سرعتها وابتكار وسائل و"مسرعات" جهنمية خاصة بامتصاص الطاقة الحيوية التي بدونها لن يكتب لمشروع المقابلة الأخطبوطية عبر-الكونية أدنى نجاح.

ق

كنت عابرا إحدى فلوات الجوف القاحلة، خلاء بلا حدود.. حر شديد ولا أثر لمخلوق أو نسمة ولا حتى حشرة. كنت العابر الوحيد لتلك المجاهل والحدود ومعني أفكارني المجنونة العابرة لكل الحدود. بعد ساعات طويلة من السير والعناء أشرفت على واد سحيق غير ذي زرع فتنأهى إلى سمعي ما خلته صوتا أو ما يشبه الهمس المنادي فأدركت لتوي أنه قد آن الأوان لتكريز طاقتي وتحفيز حواسي الخاصة ترقبا للأسوء. استحضرت أقصى درجات صفائي الذهني وصولا الى التخاطر المنشود. وكان ذلك واحد من وسائل تواصلني مع تلك الخلائق الغامضة التي تعودت على زياراتها منذ انسلخت عن الركب العتيق. قال لي هاتفي فيما يشبه الصوت إنك توشك أن تسلك دربا فريدا مذهلا لا يؤدي سوى الى الماضي. أنصحك بأن تعود من حيث أتيت إذا لم تكن مستعدا لملاقة ظلال ماضيك المعتم والمخاطرة بنفسك في ضباب المجهول.. تنازعني مشاعر الذعر والفضول في نفس الآن فلم شعر إلا وخطواتي تسابقتني نحو ذلك الدرب الملتوي الذي ازداد انحداره كالمتهاة.. وجدتي منجرفا في وعورة تضاريسه المعقدة حتى بدأت أشعر وكأني وسط دوامة من زوابع وأغبرة ودخان لم أكد أخرج منها إلا وأنا ممتقع الوجه مختنق الأنفاس. وفجأة وجدت نفسي وجها لوجه مع شاب في مقتبل العمر. كان يتقدم بهمة في الإتجاه الموازي لدربي. كان في صعود مستمر وكنت في

انحدار جارف. نظرت في اتجاهه فأدركت أنه لم يكن غريبا عني بل وجهه مألوف لدي مخزن بشكل ما في ذاكرتي. ظل يتقدم نحوي بتردد وحيرة وكلما ازداد اقتربا كلما ازدادت ملامحه وضوحا حتى كاد يلامس كتفه كتفي. وما إن صوبت نحوه نظرة متفحصة حتى صعقت وانتابني قشعريرة شديدة. لقد أدركت على الفور من يكون هذا القادم! غير معقول! هل أنا في حلم؟ كلا إنني أعود إلى الماضي بسرعة جنونية وأختزل ثلاثة عقود من عمري في خطوات قليلة. كأني أرى ذاتي السابقة تتجسد أمامي في كيان آخر أصغر مني وأكثر شبابا ووسامة وحيوية... كنت أدرك جيدا بأنه لا تماس بيننا ومع ذلك أخذت أحرق في وجهه فاتضح لي بأنني إنما أحرق في نفس الوجه الذي طالما حملته قبل عقود من الزمن... لا شك أنه أنا! أقصد أنني هو... يا للهول! من دون شعور التفت إليه وناديته باسمي ولدهشتي الكبرى رأيتة يستجيب لندائي ويبادلني التحديق والاندهاش. بعد لحظات من التردد بادرنى قائلا:

أراك تناديني باسمي يا هذا! هل تعرفني؟

أجبتة متلعثما:

وأنت ألم تتعرف علي بعد؟

نظر الي بانزعاج واستنكار:

**لا لا أعرفك! لم يسبق لي رؤيتك من قبل! ماهي حكايتك
بالضبط أيها الغريب؟**

غريب!! من؟ أنا؟ كيف أبدو لك غريبا وأنا أقرب ما أكون إليك؟
ولو تأملتني جيدا فسوف لن تفرق بيني وبينك مطلقا!؟

هل جنت؟ لا تحاول العبث معي...هيا اغرب عن وجهي!

تركته قليلا حتى هدأت ثأثرته ثم بادرتة ملاطفا:

أرجو أن تهذا قليلا يا فتى. دعني أولا أفسر لك الأمر، فأنا الآخر
لا يد لي فيما يقع!

ماذا تعني؟

كل ما في الامر أني أرى فيك نسخة مني. ليست للشخص الذي
تراه أمامك الآن بل نسخة أصلية من شبابي الذي كنته منذ زمن
بعيد.

**أتستهزئ بي! لا شك أنك تهذي؟ أرجوك أن تبعد عن
طريقي؟**

قالها وتراجع إلى الوراء في حركة دفاعية غريزية والشرر يتطاير من عينيه. تراجع بدوري خطوة واحدة وانتابني إحساس فريد من غرابة الموقف. لم أكن بنفسني مصدقا لما يحدث ولم أدر كيف امتلكت الجرأة لقول كل ذلك! رغم الإرتباك والتوتر السائدين سارعت الى طمأنة (شبابي الواقف أمامي) مؤكدا له حسن نيتي. ثم أضفت قائلا:

*اطمئن يا عزيزي فلست معتوها ولا مدعيا أو قاطع طريق بل
مجرد عابر سبيل أوصلني تسكعي إلى هنا. إنني في نزول
وانحدار وأنت في صعود وتقدم. أهدنا مدبر والآخر مقبل. ولكن
دعني فقط أسألك قبل مواصلة طريقي، أليس هذا اسمك؟*

(وأخبرته بالإسم الكامل الذي يحمله كلانا دون ريب) وكررت عليه
سؤالي فأوما برسه موافقا. ثم أضفت.

*أتصور أنك في سنك الحالية كتبت عدة قصائد عن الحب
ومقالات وخواطر ساخطة حول الوجود لكنك لا زلت تخشى
الإفصاح عنها. أما هؤلاء فهم كتابك المفضلون!*

ثم أخذت أستعرض عليه ما كان يملأ رأسي من مشاريع وأحلام وأمنيات
الصبا عندما كنت في نفس سنه. وما كدت أنهى كلامي حتى تفاقمت
حيرته وبدا لي عاجزا عن الرد. وواصلت حديثي بكل ثقة مستعرضا أدق

المعلومات حول حياته الخاصة والإجتماعية سردت عليه تفاصيل ومعطيات لا يعرفها سوانا! وأخذت أتأمل وجهه كيف يتلون ويمتقع، وشعره الأسود الطويل والكثيف ممررا يدي على رسي الأصلع الأجرد متأسفا مستغربا. بعدها صوبت نظري نحو عينيه التائهتين والمتقدتين بلمعان الولهى الحائرين في مثل سنه ثم ألقيت عليه بالقنبلة الأخيرة عندما ذكرت له اسم الفتاة التي باتت تشغل باله ولم يطلع أحد على سره حتى هي نفسها لم تكن تعلم بالأمر. توقفت عند هذا الحد ولم أشأ أن أنكئ في التفاصيل المؤلمة والجراح القادمة وكانت تترى... وتكاد تطل من الأفق. وكما توقعت كان لكلامي وقع الصاعقة على كيانه... خاصة سره العاطفي الذي كان يخشى أن يعترف به حتى لنفسه.. فتراجع خطوتين الى الوراء وكاد يتعثر من الذعر والإرتياب، بدا كمن يحاول التفوه بالكلام فلا يستطيع. وكمن يسعى للهروب ولكن شيئا ما يمنعه. ظل يحدق في اتجاهي في رعب دون أن يقوى على النظر الى عيني. كانت أنفاسه تتلاحق وأخيرا خاطبني بصوت خافت متردد:

من تكون بالله عليك؟ أنسي أم جني؟ أعوذ بالله منك ومن

شرك؟

وفجأة راودتني فكرة رهيبه فما أدراني ألا أكون بنفسي واهما وهذا الذي يقف أمامي مجرد كائن من كينونات الجوف يحاول التلاعب بي والعبث

بعقلي! أصبح كلانا يقف هذه المرة في موقف المتوجس غير أنني..
سرعان ما سيطرت على مخاوفي وهواجسي فأجبتة قائلا

*أنا أيضا لدي شكوكي! وأستطيع أن أنعتك بنفس النعوت. لا
أدري من اين أتيت وكيف ظهرت في طريقي هكذا، لولا أنني ما
أزال على اعتقادي بأنك الشاب الذي كنته قبل ثلاثين سنة.*

كنت أود لو أحكي له عما ينتظره من امتحانات وتجارب وأهوال وما
يتربص به من شرور محدقة بعضها يحاك له في الخفاء وممن هم أقرب
الناس إليه...كنت أود أن أنصح بمزيد من الإحتراس ممن كانوا يطنبون
في الود ويظهرون ما لا يبطنون أولئك السفلة والسافلات من زمرة
الثعابين والحيات والعقارب المتربصة. وددت لو يبادر فوراً إلى سحب
الثقة من معظم سكان السطح ووعودهم وأضاليل السطح وحقائق
وعلوم السطح...وكنت وكنت...وكنت... لكن كنت أدرك أن ذلك أمر
مستحيل. كانت الكلمات تتعثر في جوفي وأخذ مني الإعياء مأخذه وبدأ
الخطر المعلوم يتلمس طريقه الى ذهني ووعيي. كان شبابي ما يزال ماثلاً
أمامي بكل عنفوانه وشقاوته لكنه أصبح ينظر الي نظرات يائسة وزائغة.
كان يحاول جاهداً أن ينطق بكلام لم تترجمه سوى نظراته الحائرة. وفجأة
تنبتهت الى أن عينيه بدأتاً تحرقان في الفراغ. حاولت التقاط المعاني
المتطايرة من تلك النظرات الزائغة المتسائلة. كان لسان حاله يقول:

ليتك تخبرني شيئاً عن المستقبل؟ أما زال للأمل من متسع؟ والأمني والاحلام؟ كم منها تحقق؟ وما نصيبي من السعادة والشقاء؟ والمسرات والاحزان؟ وماذا عن أسرار قلبي؟ وطموحاتي؟ وهل صمدت مبادئني في وجه رغباتي وشهواتي؟ وكرامتي.. هل حصنتها من جموح تطلعاتي؟

هنا توقف الكلام الصامت في ذهني بعدما تمكن منه الخدر. فألقيت نظرة أخيرة على شبابي الضائع المتلاشي. كانت نظرة طافحة بمشاعر الحنين والإشفاق والحسرة مسترجعا طابور خيالاتي المتراكمة وأخطائي وسقطاتي المتكررة ومعها ذكرياتي حلوها ومرها كنت أدرك أنني لن أستطيع أن أبوح بأي شيء ولا بد له أن يعيش ما عشته ويسير في نفس الطريق الذي سرت منه.. كان لا مناص له المرور من الإختبار.. يجرب ويتعلم ويشعر ويعاني ويفرح ويحزن ويبكي ويضحك.. ولو أنه كان سوف لن يفرح الا قليلا.. كنت أستعرض كل ذلك في شريط سريع وكثيف من الذكريات حتى بدأت أغيب عن وعيي وصورة الفتى-أو صوري وأنا فتى- تتراقص أمام ناظري.. ثم إذا بكتلة من الضباب الرمادي الداكن والدخان يلتفان حول الفتى وإذا به يختفي فورا من أمامي.

في تلك اللحظة بالضبط هبت علي عاصفة رملية شديدة فحاصرتني وشرعت في ابتلاعي رويدا رويدا... لا أدري كم استغرق الأمر. وكم دامت غيبوتي. كل ما أذكره أني لما فتحت عيني وجدت نفسي مطروحا على

قارعة الوادي السحيق. كان السكون غريبا شاملا والجو موحشا، ثم
تناهى الى سمعي أصوات ضحكات خفيفة مرققة فالتفت من حولي
مستطلعا.. ولم أر سوى جدول من الماء يتوغل بين الصخور والأتربة
والحشائش.. وكانت قطرات من المياه تتقاذف ضاحكة جذلي، ثم بدا لي
كأنني أسمع حديثها وأفقهه ... كانت واحدة منهن تقترب مني.. هامسة
لمن حولها من القطرات:

**هيا بنا نرثس وجه مجنون آدمي آخر طوحت به دوامة الماضي
صوب وادينا المجوف.**

ك

فتحت عيني بتثاقل وآثار الخدر بادية على كل ذرة من ذراتي. لم أكن أعرف اين أنا! هل تأخرت مرة أخرى عن مواعي المصيري؟ هل ما يزال ثمة أمل؟ أم أن الأوان قد فات؟ هببت من رقدتي مذعورا واتجهت بطريقة آلية صوب الحظيرة. وجدتها فارغة.. تساءلت مع نفسي.

أين تراه ذهب القطيع؟

سمعت صوتا غامضا يردد داخلي متوعدا..

أرأيت! دورك لم ينته بعد.. نحن لم ننته منك بعد!!

اجبت مندهشا:

أنا؟ لا أكاد أعرف أصلا من أنا ولا حتى من تكون؟

***لقد كنت أنت الراعي.. أتذكر؟ لكنك خذت نفسك وخذلتنا
وخذلت حتى قطعانك؟ وهذا هو أخطر ما في الأمر. قطعانك
لم تعد طيعة ولا أليفة وهذه جريمتك الكبرى!***

أية قطعان؟ لم تكن لدي سوى أفكار؟

**كفى لن يجديك الإنكار.. لقد فقدت عصاك وفقدت
قطعانك.. عليك ان تستردها؟**

كيف؟

**أمامك حل واحد.. عد بأدراجك صوب دوامتك المهووس
بها.. دوامة الزمكان المجوفة.. عليك إعادة صياغة قطعانك
وأفعالك حتى تتواءم مجددا مع متطلبات المرحلة القادمة!**

أية صياغة؟ وأية مرحلة؟

صه.. أنت لا زلت تجادل.. ألم تضع كمامتك بعد؟

ابتلعت لساني مجددا على مضض وأنا اشعر أنني لم أعد فعلا نفس
الشخص. شيء ما رهيب تغير في شخصيتي.. وفي كل من حولي.. ولكن
ما هو بالضبط؟ أخذت أتفحص ظاهري بحذر وتدقيق أكثر.. يا للهول
لقد كان على جسدي صوف كثيف.. هرعت فزعا صوب المرأة.. مرآة
الحقيقة! رأيت شيئا هالتي كان وجهي طويلا وعريضا على غير العادة
وعلى راسي قرنان ملتويان.. صرخت من فظاعة المشهد.. ذكرتني
الصورة المعكوسة في المرآة بوجه شيطاني كان مدعاة للسخرية فيما
مضى انه يشبه "بافوميت"! تساءلت مع نفسي مستنكرا.. يا له من
وجه قبيح.. إنه يذكرني بمسوخ ما رأيت من قبل؟ ربما في واحدة من

أحلامي الغامضة. ولكن لا يمكن ان تكون هذه صورتي بتاتا؟ سمعت
قهقهة صادرة من أعماقي.. سخرية مريرة..

ليس بافومييت الذي كنت تعرفه! إنه صنف آخر هجين!

ماذا؟ من المتكلم؟

**اهدأ قليلا ما كل هذا الهلع لم يعد ثمة ما تخشاه أو تأسف
عليه.**

ماذا تعني؟

**ما كنت تخشاه قد حصل فعلا. انك تنظر الآن إلى وجهك الذي
ستحمله معك في مهمتك الجديدة والأخيرة.**

حدقت بالرغم مني في المرأة تأملت شكلي ووجهي فلاحظت وجود
أجراس صغيرة معلقة حول عنقي. فصرخت بما يشبه الثغاء..

ما كل هذه الأجراس التي في عنقي؟

**إنها "عصاك" الجديدة. وسيلتك لاستقطاب قطعانك..
أفكارك وإعادتها إلى الحظيرة!**

عند سماع كلمة قطعان اجتاحتني غبطة حقيقية.. أفعل ما تزال قطعان أفكاري موجودة وسليمة.. كما تركتها.. علي أن أستعيدها. حاولت أن أقفز من الفرحة فاستغربت كيف لم أنتبه الى أنني كنت أقفز على أربعة أقدام.. كانت الأجراس ترن بين قفزة وأخرى.. وفجأة بدأت تتوارد على سمعي أصوات مألوفة تتصاعد بالتدرج. عدت لسؤال بدا يؤرقني..

ماذا يعني كل هذا؟ هل سأتولى مسؤولية رعاية القطيع بمجرد وصوله مثل أي راع آخر.. وكما كان يحدث في السابق؟!

لا.. ليس بالضبط -أجابني صوت غامض من الداخل- لم تعد أنت الراعي.. فقد تفضل "معالي" الأخطبوط شخصيا هذه المرة لتكليفك بمهمة أخرى لا تقل خطورة. وستكون فيها تحت الاختبار المتواصل والمراقبة اللصيقة من عين الديجيتال.. إنها فرصتك الأخيرة!

عن أي دور تتحدث؟

لقد تمت ترقيتك من خروف أليف إلى مرياع. أنت الآن قائد القطعان ومرشدها الروحي والميداني الى المثلث الأخير.

وهل ستسمحون لي برعاية قطعاني بكل حرية؟

**هذه الكلمة الأخيرة لم يعد لها وجود في دستور المقاومة
الجديد. دورك الآن محدد سلفا ضمن ثلاثية أبدية... ومهمتك
الوحيدة أن تقود القطيع ما بين الحظيرة والمرعى والمذبح.
هل فهمت؟**

اختلطت علي المشاعر فأطرقت صامتا مشدوها وأصوات ثغاء الأغنام
والماعز تقترب أكثر وأكثر. لم أكن أدري هل أستبشر بدوري الجديد
داخل المنظومة أم أبكي -مسبقا- حسرة على رفاقي وأفكاري وأرثي
مصيرنا المحسوم والمعلق بيدي.. والأجراس المعلقة في عنقي!

عندها تذكرت كل شيء فقد طافت بذهني مشاهد كالرؤى عن ذلك
"المعسكر" المدفون تحت إحدى المخازن والمسرعات الجوفية الهائلة
التي تمتلكها المقاومة عبر-الكونية "زيتا" وكنت محاطا بملايين
الصراصير العنكبوتية وغيرها من المخلوقات الأليفة! أدركت بالضبط إلى
أين سأقود قطعاني! لم تكن تلك رغبتني حتى لو كانت هي قدرتي
المشؤوم الذي ظللت أتحاشاه عبثا من دون جدوى!

(5)

المؤامرة وأخواتها

حينما فتحت عيني للمرة الأخيرة راغبي أن وجدت نفسي منطرحا على جنبات شاطئ غريب يتاخمه خلاء عبارة عن أرض جرداء على حدود ما بين العالم المشهود والعوالم السفلى من تلك الأرضين الغامضة. تفقدت ساعتى الذهنية الجوفية فوجدت أن الوقت يتجاوز منتصف الليل بثلاث ساعات. طبعا الثالثة صباحا (دائما وابدأ) حسب التوافقات الزمكانية للأكوان السبعة! كانت ثمة شجيرات عوسجية وغرقدية شائكة تحركها رياح تنبعث منها أصوات مكتومة ومخيفة تحاكي أنين صغار الوحوش والأبالسة. سارعت الى إغلاق عيني أملا في مغادرة هذه المنطقة المرعبة بالذات من أرض الكوابيس. لم يكن حلما إذن أو وهما عابرا! وليته كانت كذلك! فقد كنت صاح كفاية لأعرف بأنني أعيش وعيا ذاتيا في منطقة ما من الواقع الملموس. وازداد هذا اليقين رسوخا بعدما تناهى إلى سمعي اقتراب صوتين أنثويين. كأنهما فتاتان تتجادلان؟ وكلما تضاعف ارتفاع حدة جدالهما ألا وأدركت أنهما تقتربان مني، فما

كان مني سوى أن هببت واقفا على قدمي.. كاد قلبي على إثرها أن
ينخلع عن صدري فقد اكتشفت أن قدمي عبارة عن حافرين يشبهان
حوافر الخرفان...

يا إلهي أعشت مثل هذا.. في حلم سابق؟ أم في رحلة جوفية موازية؟

في غمرة صدمتي وحتى قبل أن أسترد رباطة جأشي وجدتني أفتح
عيني على مصراعيهما محدقا مذعورا فقد اتضح لي أن الفتاتين كانتا
على هئتين مختلفتين إحداهما أقرب للآدمية لولا بعض اللمسات
والتفاصيل التي لم أر لها مثيلا سوى في عالم الأبالسة المتحولين الذين
التقيتهم بشكل ما في زمن ما لا أذكره.. أما الأخرى أو الآخر-لم أكن واثقا-
فكان على غير هيئة نصف-بشرية ولديه حوافر أكبر حجما من حوافري
مما يعني أنهما حوافر للبالغ العابرة للأبعاد والأكوان وتبينت الآن من
خلال نبرة صوتيهما الرخيمين أنهما ربما من ثلاثي الجنس.. لم يبد
عليهما أنهما تشعران بوجودي أو تأبهان لأمرى بل استمرت في حديثهما
الصاخب حتى سمعت إحداهما تقول (بصيغة المذكر):

لن أتنازل عن حقي.. بالتأكيد أنا الفائز فقد نجحت في المهمة.

وسأحظى بالجائزة فموتي بغيظك!

فقاطعها الثاني محتجا (بصيغة المؤنث):

**لا بل أنا هي من ستحظى بالإشادة والجائزة على السواء
فأنت لا شيء مقارنة معي.**

عاد الأول للهجوم بضراوة أكثر:

**كفاك هراء! دوري كان محوريا في نجاح المخطط أما دورك
فكان ثانويا للغاية بقدر حجمك!**

ثم انخرطتا في الكلام دفعة واحدة كل تعدد انجازاتها وتتفاخر ببراعتها. لم يصدر عن أي واحدة (ة) منهما أدنى علامة على التنازل أو الرغبة في الإستماع للآخر. فجأة احتد بينهما الجدل حتى خلتها ستشتبكان مع بعضهما البعض فلم أشعر بنفسى حتى وجدتنى أصيح في وجههما قائلا:

**كفاكما جدلا عقيما. استمعا لبعضكما البعض أولا وحاولا
الوصول الى تسوية مقبولة. مهما كانت أهمية ما تتجادلان
حوله! لم لا تذهبا إلى الأمم المتحدة مثلا؟**

التفت الي كلاهما -أخيرا- وهما مصدومتان من كلامي أكثر من صدمتهما من وجودي. وسرعان ما بدا عليهما ما يوحى بالاشمئزاز من رؤيتي. اكتفتا بالنظر الي باستخفاف وامتعاض وكأنهما (ينظران) إلى حشرة حقيرة، ثم بادرتنى إحداهما قائلة بازدراء..

**أمم متحدة على من؟ لم يبق على وجهها من أمم! ما تبقى
سوى أمثالك من القطعان؟ أين كنت غافلا طول هذا الوقت
أيها المرياع. أنت الآخر صرت تطمع في منازلنا على
الجائزة؟**

أذهلني هذا الرد وألجم لساني فلم أحر جوابا بقدر ما طأطأت رأسي صوب
قدمي أو بالأحرى "حوافري" متسائلا عن سر تحول أقدامي البشرية الى
حوافر! فهل لهذا علاقة بما قالت لي هذه المخلوقة الجوفية اللعينة؟
وقبل أن ألملم أفكارني نظرت إلي المخلوق الآخر نظرة لا تقل شماتة وبادرني
قائلا:

**دعك منها إنك اليوم ستكون شاهدا على أهم إنجاز في
وجودي؟**

استجمعت شجاعتي وسألت:

**لا أدري عن أي حدث تتحدث أو تتحدثين ولا أعرف من تكونا
ولا من أكون أنا الآخر؟**

**إنك تبدو لي من خلال هيبتك كواحد من القطعان المنتقاة
بعناية ولا شك انك من ضمن المعجبين بي وبأدوار الخارقة**

**أنا هي من تدعونها في جلسات مضغكم اليومية "نظرية
المؤامرة" واليوم موعد حصولي على الجائزة فما قولك؟**

ارتفع صوت الآخر محتدا ساخرا...

**عن أية جائزة تتحدثين أيتها (الع). أيتها النظرية الفاشلة
المضللة. ألا زلت ترفضين الإعراف بالواقع المر... إنك لست
إلا فقاعة مدعية.. أنا هو الفاعل الرئيسي واللاعب الأهم. أنا
"مؤامرة المؤامرة" أنا الأقوى والأدهى!**

بمجرد ما انتهى من كلامه حتى انقضت عليه من أسمت نفسها "نظرية
المؤامرة" وأنشبت في عنقه مخالب حادة أشبه بمخالب النسور ورد عليها
بصفعة مدوية وانخرطا في عراق ملتهب. كان الزبد يتناثر من فميهما
والغبار يتطاير من حولهما وأنا وسطهما مترددا في فض هذا الإشتباك
العجيب الناشب بين حليفين وغريمين في نفس الوقت.. كنت مذهولا
مما سمعته منهما من أغاز يصعب على دماغي المشلول استيعابها أو
تحديد مراميها وأبعادها.

وبينما أنا على ذلك الحال أحسست بحركة خفيفة من ورائي وإذا بيد
ناعمة تربت على كتفي. التففت متوجسا ورأيتها... فصعقت لرؤيتها.
وكيف لا أصعق وقد أصبحت في مواجهة مخلوقة باهرة الجمال والإغراء

تختزل في ملامحها كل ما راكمته في عصر توهاني التكنولوجي الجامح من أهواء واستيهامات وأوهام افتراضية. لكأنها التجسيد المتكامل لشبق المتعة الآدمية في نسختها الشيطانية! كانت عيناها براقيتين واسعتين زرقاوين خضراوين دعجاوين... عينين سحريتين قزحيتين طافحتين إغراء وإغواء. يا للهول إنها تغمز لي نفس الغمزات التي كانت ترددها نجمات المنصات الاجتماعية وهن يرسمن علامات مثلثة ويتميلن بمؤخراتهن الاصطناعية صوب مخلوق لابد ان يكون حاملا لقرون وله وجه كلب أو "عتروس" على اقل تقدير! هل أكون أنا الآن من يؤدي هذا الدور حتى لو لم يكن دوري؟ انتصبت في مكاني مشدوها لا أقوى على الحركة بينما استرسلت هي في كلامها الهامس بصوتها الأثوي الأغنج... وفي شاشة بحر عينيها الجاذب للأعماق رأيت من خلاله أطياف جل الممثلات ونجمات الشاشتين الصغيرة والكبيرة... رأيت نجومات الأغلفة وعارضات الأزياء أو بالأحرى "عاريات" الأزياء ونجمات الاغراء... كان شريطا إبليسيا متدفقا من الأهواء والرغائب المنسوجة من صفائر تكنولوجيا الشيطان. كنت أغالب نفسي الواهية مخاطبا بقايا وعيي المهدور المتضائل راجيا في يأس محموم هامسا في خفوت..

أما من يوسف ينتشلني من غواية هذا الليل البهيم؟

ثم يأتيني صوت يائس من عتمات نفسي الواهنة صارخا باستسلام:

لا سبيل لأن يقص قميصك من دبر!

اتنفضت عند سماع هذه الخاطرة... بحثت عن بقايا كبرياء مسلوب كنت أوهم نفسي عبثاً أنه ربما يكون مدفوناً في إحدى جيوبى ولكن مهلاً.. عن أية جيوب أتحدث؟ إنني لا أتحسس سوى كتلة من الصوف يبدو أنها من يتلبسني. وإذا بالهمس الأغنج يعود للتساقط كالرذاذ المنعش على أذني..

إلى أين مضت بك خيالاتك وأحلامك أيها الماعز الأليف! عد

إلى من غياهب أوهامك. تعال معي لأخبرك بكل شيء

استجمعت بقايا أشتاتي وبادرتها مستفسراً:

أريد أن أعرف أولاً من تكونين بين الخلائق؟

رمقتني بنظرة ماحقة وقالت بنبرة ماكرة:

أولم تعرفني بعد؟! ليس لي إسم واحد ولا جنس ولا أصل أو

فصل ولا مكان ولا زمان! لأنني ساكنة في كل الأمكنة ومتجولة

عبر كل الأزمنة ومتغلغلة في كل النفوس!

لم أفهمك جيداً!

فاتك أوان الفهم...

وما خطب الكائنين الآخرين لقد تركتهما يتعاركان؟

لا تشغل بالك بهما كثيرا إنهما هكذا دائما في جدال ونزاع حول الهباء.
طمعهما في جائزتي هو كل كل نصيبهما منها.

وماذا عني أنا؟

صدرت عنها ضحكة مستهترة ساخرة قبل أن تجيب مقهقهه...

***أنت! أنت بالضبط سوف لن تنفك جائزتي! انتفت الحاجة
إليك ولأجراسك المعلقة.. ثم إن "المرياع" لا يحتاج إلى
جائزة.***

أحسست بقوة الإهانة وبدأت الدوامة تلتف من حولي وعاد الخدر يتسلل
إلى نفسي. كنت ما أزال تحت تأثير الصدمة والذهول أحاول أن أتذكر
متى صادفت هذه المخلوقة وما المغزى من كلامها... من تكون هذه
الحورية الفاتنة غريبة الأطوار التي تدعو نفسها عابرة الأجناس؟ في أي
منعطف من منعطفات حياتي السالفة صادفتها؟ ولماذا هي شديدة
الإغراء والإغواء إنها تذكرني بـ "نيمفي" ملكة الحوريات الشبقات؟ فكيف

تحولت أنا من راع إلى مرياع؟ أ كان ذلك في واحد من أحلامي الغربية أم
هذه هي حقيقتي الجديدة؟

وفيما كنت أواصل انجرا في قعر المصير المشؤوم كانت هي قد شرعت
للتو في الرقص الموجه فوق جراحاتي القديمة والطائرة منتشية بحركاتها
الأفعوانية الأخاذة مرة تتلوى كأفعى ومرة أخرى تحوم من حولي
كالضبعانة وفي كلتا الحالتين كان جمالها الفتان يزداد فتنة. ثم بدأ
جسدها يتحول إلى ما يشبه العقرب.. وحينما كنت في طريقي للدخول
في قلب الغيبوبة أو بوابة الرجوع تهباً لي أنني أسمعها تردد بدهاء
وازدراء..

*أنا هي عابرة الجنس والأجناس ومغوية القديسين
والأنجاس.. أنا التي تخشونها كلكم وتستهونها في سركم لكن
اسمي يكاد لا يبارح أذهانكم.. ولا يغيب عن مجالسكم! نعم
أنا هي أنا هي.. أنا المؤامرة العابرة للأكوان!*

كانت هذه العبارة آخر ما تناهي الى سمعي وأنا في طريقي للعودة من
حيث أتيت.. حتى قبل أن أتأكد من ماهيتي بالضبط وعلاقتي بهذه
المخلوقة الشيطانية الفاتنة!

ل

كان موعي هذا اليوم مع الطابق الرابع.. كنت أحمل معي كامل عدتي وعتادي.. مكنسة.. أكياس بلاستيكية وغيرها... وقفت في مواجهة عين الديجيتال أراقبه كما يفترض أنه يراقبني وأتوعده في حالة ما كان هو الآخر يتوعدني.. لم يعد لدي ما أخسره منذ أمد بعيد! أي منذ خسرت هويتي الأصلية. كنت أؤمن بمن يكون السبب؟ فلم أعثر سوى على كائن واحد... نعم هو بالتأكيد وليس غيره! التفت الى نفسي الأخرى "المزورة" وطفقت أساء لها:

ماذا بعد؟

ماذا تقصد؟

أعني ما العمل بعدما صرت أشبه بالفقاعة؟

لا تأبه للأمر لقد كنت واحدا منهم ولكن كبرياؤك هو من

أعمى عينيك عن رؤية الحقيقة..

ماذا؟ أتعنين أنني كنت دوما منهم؟ مجرد فقاعة؟ تبا لك حتى

لو كنت صادقة!

**بل كنت اسوء منهم! وما أنا الآن إلا نفس مزورة فاقبل
بكلامي أو ارفضه لا مناص لك من الإقرار بالفشل مهما بلغ
اعتدادك بنفسك! فلن تعدو قدرك أو تتجاوز قدرتك! لست
في النهاية الا واحدا منهم.. جلکم تبادلتم الأدوار ما بين
حالات.. وإمعات وفاقيع فاختر أهونها لديك ودعني أعود
لغيبوتي المفضلة..**

اللجنة لقد تذكرت الآن.. لقد عشت بينهم لمدة طويلة لتصيني عداهم
ولعلي سعيت إلى محاكاتهم! ولكن دعنا من هذا الآن لقد رأيت مثيلا لهم
نماذج شتى لا حصر لها تتقاسم نفس الصفات والميول والطباع ولا
غربة في الأمر فلطالما كانت أمة الفقايع كثيرة العدد. وكل فرد من
أفرادها إلا وله عين فوق رأسه وفم واسع بشدقين غليظين ولسان
طويل حاد مشحوذ على الدوام من فرط المضغ والكلام. ومباشرة فوق
عينه ينتصب عصب رقيق طويل يشبه جهاز الإرسال يستعمل لالتقاط
كل الإشارات والذبذبات التي يستطيع من خلالها أن يترصد كل الأنشطة
والأخبار والأحداث في مختلف الطبقات التحت-أرضية. وكانت لكل فرد
منهم أذن واحدة محمولة، متطاولة وواسعة تشبه أذن الفيلة. كانت أمة
الفقايع أكبر أمة مستهلكة للكلام وخاصة حشو الكلام. وكلما تطايرت
كلمات من لسان غريب أو عابر سبيل، إلا وتحولت صوبه عيونهم وآذانهم
وأجهزة إرسالهم المنصوبة على ناصيتهم مباشرة فوق عيونهم. كانوا

يعيشون ويقتاتون على الكلام والأخبار والأصوات. وكانت لديهم في بيوتهم شاشات مكتظة بالكلام. كانوا يلزمون بيوتهم يترصدون كل شاردة وواردة مما تتقيه تلك الصناديق من فذلكات وترهات. ويصدقون كل ما يسمعون ويتقبلون كل ما يلقي إليهم من نفايات وأضاليل فلا يكادون يغادرون مساكنهم إلا إذا طرق بابهم طارق لبييعهم مزيدا من "الخرافات" الطازجة المقلية منها والمشوية أو المحشية وهذه الأخيرة كانت من أعلى الأصناف وليست من ذلك النوع الذي يطلقون عليها "اشتر واحدة واحصل على الثانية بالمجان". كان هؤلاء الفقاقيع وهم في طريقهم نحو أعمالهم يحملون معهم أجهزة صغيرة وشفافة تزودهم بالجديد والطارئ والمثير من المستجدات الفقاعية الفارقة. وقليل ما ينامون وإذا صادف وغلب أحدهم النوم فإنه يهب من نومه بعد ساعات قليلة وهو مذعور متحسرا على إضاعته مثل هذا الوقت الثمين دون أن يملأ رأسه الطنانة بحشو الكلام! كنت كلما حاولت المقارنة بين هؤلاء من أصحاب الرؤوس الطنانة بالفقاقيع الإخبارية وبين أولئك من ذوي الرؤوس الكروية العائمة.. وأيهما أجدر بحمل رسالة البشرية إلى باقي الأكوان العلوية والسفلية إلا واشتدت حيرتي حتى أدركت الجواب يوم توغلت في إحدى جولاتي بوادي الرؤى فوجدت نفسي محشورا في إحدى المواكب الغرائبية المنقادة طوعا إلى ساحة الاصطفاف العظيم أولئك الذين كانوا يمشون جنبا إلى جنب وكتفا لكتف.

م

كل شئ بات مشرفا على الانتهاء. لم يتبق سوى خطوة واحدة -هي الأخطر- لتكتمل الدائرة ثم ينتهي كل شئ. فالعالم قد تغير! من قبل؛ وفي تلك السنة الكبيسة كان قد بدأ المخاض فتكتلت الإرهاصات وتناولت الفتن وتشابكت لطمس معالم الكون المحيط مقلبة كل الموازين جاعلة الذي لم يكن يرى أشد عماء والذي لم يكن ينصت أكثر طرشا، أما القلة المتبصرة فلم تكن لها قدرة على مقاومة الطوفان المندلِق الذي شرع في اجتياح الجوف والسطح و"البين بين". كانت الاشارات والتحذيرات تسير في اتجاه واحد... كل شئ ينبئ عن دنو أمر جلل...نهاية وشيكة لكل ما بني من حضارة وتراكم من انجازات. وكنت من داخل قوقعتي الصغيرة المطلة على جسر الأهوال القادمة أترقب بدوري متى وكيف سيتحطم عالمي الصغير الذي بنيته من حولي على مدى السنين الطويلة. في تلك السنة الكوايبسية حلمت بالنهاية الوشيكة. كل شئ ابتداء بحلم ولعلها رؤيا-لست متأكدا تماما- وكانت جل النبوءات الجادة منها والمضللة من كل الحضارات السابقة والمعاصرة تشير اليها بطريقة أو بأخرى. ثم تكاثفت الوقائع والعلامات الملغزة منذرة بالشر الوخيم المقرب كوحش أسطوري يتوعد بالتهام حضارات بأكملها لتطوى مرحلة وتبدأ أخرى أشد هولا وبأسا على مصير البشرية وغيرها من المخلوقات. كان السطح قد نخره الفساد وأخذ

الجوف يتحرك كالبركان حاملا معه كل أسرارهِ ومجاهله والكائنات
المتربصة داخله. وكان ذلك إيذانا بفقدان الأمل في أعمال البشر.. فهل
آن الأوان لتتدخل كينونات الطبيعة الجوفية لتقول كلمتها الاخيرة
والفاصلة بعدما تهاوت كل صيحات الإنذار والتحذير طوال القرون
البائدة...أو تكادا!؟

(6)

المهمة الأخيرة

بينما كنت أمضي حثيثا صوب الهاوية في طريقي إلى "المابين بين" ما وراء عتبة الأمان وقعت في مطبين... كنت أقاوم جاذبية السفر في زمنين مختلفين وأخوض مرة أخرى تجربة التنقل بين بعدين اثنين -متنافرين- لكن بسرعات متفاوتة وبدون استعداد أو تخطيط. كنت أتساءل بيني وبين نفسي كيف لي أن أسلم الآن من مؤثرات وتشويش كائنات العالم السفلي المسلطة عن قرب -وأحيانا عن بعد- تلك التي لا تستهدف سوى التلاعب بي وبأفكاري المتجولة ما بين التجايف وفيما وراء الأبعاد المحسوسة؟ كنت -هذه المرة- أقود سيارتي المهترئة صوب المطار الدولي القريب من العاصمة وكانت رفيقة عمري تجلس إلى جوارى صامتة مطرقة فقد كان لا يفصل بينها وبين المغادرة سوى دقائق معدودة. تلك كانت الحقيقة المرة. كلانا كان مغادرا نحو اتجاه مختلف وكل واحد منا اختار -مكرها- اتجاهه للمرحلة القادمة والغامضة من تاريخ الأرض. اختارت هي العودة إلى حيث التقينا أول مرة!

تراها ما تزال تفتقد الأماكن والناس والذكريات رغم طاغوت الواقعة الكونية الأخيرة التي اجتاحت السطح؟ أما تزال مصرّة على زيارة مراتع الشباب وتقليب صفحات كتاب يعرف كلانا -في قرارة نفسه- أنه طوي إلى الأبد بعدما تمزقت أجمل صفحاته؟ وما خدشته إلا أيادي العدو المجهول المتربص الذي أملى شروطه المطلقة بلا هوادة ومن دون اقتراع ولا استفتاء! ها هي نفس السبل التي جمعت بيننا عمرا بحاله تفرق بيننا اليوم! وكم كان الوداع موجعا عند محطة المغادرة لأنني كنت موقنا أن وجهها سوف يمسي آخر وجه آدمي أراه قبل الصعود إلى الهاوية. لم أكن لأختار اتجاهي المقبل عن طواعية فقد كانت رياحه وأرواحه تجذبني جذبا إلى القاع.

عدت صوب الطريق السريع 66(6) تتقاذفني الهواجس من كل جانب بعدما أصبحت وحيدا في أقصى درجات العزلة... وها هي الفرصة السانحة تحل أخيرا لكل أولئك المتربصين في خفاء. إنها لحظتهم الفريدة والأخيرة للإنقراض... فقد صرنا على خط التماس وكنت أدرك أن لا مساس. ومع ذلك بدأت أستشعر حضورهم المكثف. إنهم حتما في زاوية معتمة من تلك العتمات الزمكانية المشتركة بين العوالم... هل تراهم الآن يتجسسون على نواياي ويختبرون تماسكي؟

هكذا أخذت أتساءل مع نفسي وأنا أحاول التركيز في سياقتي. انحرفت نحو الجهة اليسرى من الطريق السريع وولجت مخرجا جانبيا يختصر المسافة نحو كراج شارع القيامة بالعاصمة. لكنني بمجرد ما لامست قدمي اليمنى دواسة السرعة حتى وجدتني أخترق غيمة داكنة. أخذت التكوينات الضبابية الغامضة تنتصب أمامي وتلتف وتتغشى قبل أن توجهني نحو مسار مجهول. لم يكن ذلك إلا تمهيدا لدخولي القسري إلى حيث تنتظري المتاهة.. إنها نفسها البوابة التي ظلت تحتجزي ذهني ونفسيا في منطقة ما وراء الأبعاد لسنوات طويلة.. هنالك حيث يندمج الواقع الملموس مع عوالم التيه. كانت جاذبية الجوف تجذبني بذبذباتها وكلايبها "الكهرومغناطيسية" الخفية. وكنت أنجرف نحو دائرة الإعصار الجوفي... هناك حيث تربض كل الكينونات المتربصة. ومن حيث تنبعث أسوء مخاوفي. كانت مقاومتي شديدة هذه المرة رغم اشتداد جاذبية رياح العوالم السفلية. وكان علي اجتياز دهاليز وسرايب معتمة ومعقدة، واختراق أضواء متقطعة وموجات سديمية داكنة، تخللتها أدخنة منبعثة من مداخل ومخارج بلا نهاية. ثم العبور من المنعطفات والمنحدرات بسرعات قياسية لا تماثل سرعات السطح المتباطئة.. كانت النداءات المتوعدة تتوالى، وأنا أجاهد للحفاظ على تماسكي مستعملا أقوى أسلحتي.. التركيز المضاد للتخاطر البعدي. كان ينبغي علي الإبقاء على صفائي الذهني وهدوئي النفسي بمعزل عن تلك

الجازبية... بعدها بدأت تتكشف لي الرؤية وكانت تسبقها رؤى تترى.
كنت ما أزال أقود سيارتي لكنها كانت تبدو متأرجحة بين الدوامات
الارتدادية كأنها انصهرت في جاذبية مضادة للجازبية. كنت أشعر بنفسى
كأننى أقود سفينة فضائية أو غواصة جوفية. ولم يكن يشغل بالى آنذاك
كيفية النزول من قمة الأسفل، أو خطورة السقوط إلى الهاوية. لقد كنت
أصلا فى أحشائها. ولن تكون سقطتى الوشيكة هاته بأسوء من سابقاتها،
أما احتمالات الموت فكانت آخر ما يشغل بالى لأننى كنت موقنا بأن لى
معه موعدا لن أخلفه.. فما الذى يمنعنى من أن أكون أنا من يطلبه!؟

ن

بحثت طويلا عن أحكي له ما في جعبتي. كنت أستشعر ثقل حمولتي الزائدة. وبات علي التخلص منها.. وما يدريني إن كانت ما بحوزتي شفرات من عالم آخر مهما كان سفليا أو رماديا قاتما؟ لا يعنيني أكانت للتبشير أم للتحذير؟ أم هي مجرد طقس من طقوس إلقاء النفايات على الرؤوس اليانعة؟ ما راعني حقا في رحلة الجوف ألا أحد كان مهتما أو على استعداد للإنصات. كنت كلما اتجهت نحو أحدهم مخاطبا إلا وأشاح بوجهه عني وولى مدبرا تماما كما كان يحدث لي مع أولئك الذين عاشرتهم! مررت على جمع من الخلائق وكانوا كلهم مهرولين. كانت آذانهم طويلة نصف دائرية تمتد لما بين الأكتاف والأرداف وفروة الرأس. هذا ما خلته في البداية ولكنني حين اقتربت منهم وأمعنت الرؤية تهيأ لي بأنهم يشبهون الناس العاديين أو يكادون. غير أن أصابعهم لم تكن تجرؤ على الانفصال عن آذانهم بينما تصدر أفواههم أزيزا متواصلا شديد الإزعاج. غادرتهم محبطا أبحث عن آذان أخرى صاغية. وعند نهاية الطريق رأيت جمعا آخر من الخلائق يجلسون القرفصاء متحلقين مترقبين وعيونهم تتلأأ ببريق غريب. استبشرت خيرا وحدثت نفسي متفائلا.. أخيرا وجدت ضالتي! اقتربت منهم محييا فلم يرد علي أحد. فقلت مع نفسي لا بأس.. لعلهم لم يفتنوا بعد لوجودي. اخترقت صفوفهم حتى بلغت المقدمة ثم اعتليت المنصة وشرعت في إلقاء خطابي. كان خطابا طويلا "رانا" لا

يختلف في حرارته "الزائفة" عن غيره من خطابات الضجر. ولا يقل في تعابيره وانفعالاته عن خطابات المسرحيين من سياسيين وشيوخ وقساوسة وأخبار.. كان يضاهاى خطابات ساسة الزمان من حيث شراسته. حاولت من خلاله أن أحذو حذو المتحذلقين معتمدا على قاعدة "خالف تعرف". خاطبت تلك الجموع "المكمنة" الافواه من المقرفين قائلا:

*إن الأكوان المتعددة والمتوازية والمتداخلة تقف الآن في مفترق
طرق وعلى أهبة أحداث عظام جسام.. وما تعایشونه وتعاینونه
ليس بالضرورة أن تكون حقیقته كما تبدو في الظاهر. التفتوا إلى
الباطن.. وليس السطح مثل الجوف.. وليس كل ما يقال ينبغى
أن يصدق. لا بد من الإصغاء للكلام الذي لا يقال وليس الذي
یتصدر المنابر ویلقى على الملأ.*

ثم ختمت كلمتي "التاريخية" بنصائح "جوفاء" من قبيل ضرورة الانتباه لمكر الدجالين والحواة من مشرعين ومنفذين وأعوان.. والاحتياط ممن يحمل صفة "رجل أعمال" أو "وسيط" أو "مستشار قانوني". وحذرتهم من محترفي المحاماة و"المداواة" بالتي كانت هي الداء...وفي مقدمتهم أولئك الحربائيون المتحدثون بأسماء غيرهم والناطقين الرسميين باسم الضلالة والخديعة الإنسانية الكبرى من كل الطوائف والنحل فإنهم

سحرة الألسن ومطمسي العيون والافئدة. كان الجمع يواصل التحديق في المنصة التي أصبحت الآن هي مسرحي الكوني وفرستي التاريخية لإفراغ ما في جعبتي.. رفعت أصبعي ملوفا في وجوههم الواجمة ومرت في ذهني أطياف سحرة العهد الجديد.. من سياسيين.. ومن يسير في ركابهم من إعلاميين وانتفاعيين فانفجرت في الحاضرين صائحا ومحذرا

*إياكم ثم إياكم من هؤلاء الاوغاد! كفوا عن التحديق في الكرات
البلورية السحرية التي تخرج من جرابهم ابتعدوا ما استطعتم
عن طريق وسطاء الاحلام ومحترفي التنويم المغناطيسي
والتنجيم القهرو-اقتصادي! هبوا ما استطعتم إلى إطفاء أجهزة
التلفزيون في بيوتكم! بل كسروها إن استطعتم! ألا ترون كيف
باتت مصدر خراب لصغاركم وتضليل وطمس لهوياتكم؟
عليكم بمقاطعة وسائل الاعلام الرسمية التي تنتجها
"المقاولة" وتحتكرها لاستعبادكم واستنزافكم.*

كان الحماس قد أخذني مأخذه فصحت فيهم مضيغا بكل ثقة:

*ألا ترون كيف خيمت على الكون كل تلك السحب الداكنة من
الخداع والتضليل والتجهيل وانقلبت المفاهيم إلى أضدادها
فمن نصدق الآن؟ ومن نكذب؟ ثمة أحداثا جساما قادمة وهي
على الأبواب.. فهل أنتم مستعدون للنهوض من سباتكم؟*

نظرت مرة أخرى نحو الصفوف. كانوا على نفس هيئتهم من البداية...صمت مطبق حتى خلت أنهم قد استوعبوا كلامي واستساغوه.. توقعت انهمار سيل من الأسئلة تعليقا على مداخلتني لكنني فوجئت بصمتهم الرهيب. تقدمت نحوهم محاولا استجلاء الأمر. كان بريق عيونهم فقط هو العلامة الوحيدة على أنهم لا زالوا على قيد الحياة. وكنت كلما أمعنت في الإقتراب منهم والتفرس في وجوههم إلا وأمعنوا في التحديق في عيوني بدهشة تفوق دهشتي واستنكار يضاهي اشمئزازي. فانتفضت في وجوههم مؤنبا:

*لم لا تجيبوا أو تستجيبوا أيها الملاعين! ماذا دهاكم؟ أليست
حقوقكم ومصالحكم من على المحك! ومصيركم من يتقرر
تحت أرنية أنوفكم وأتمم لا تحركون ساكنا! تبا لكم!*

عبثا كان صراخي ومثله خطابي! انتابني اليأس والغثيان وراودتني فكرة المغادرة والانسحاب من وسط هؤلاء البكم غير أنني قررت في الأخير أن أستخدم آخر أوراقى فقلت مع نفسي لم لا أنخرط في صفوفهم وأشاركهم "قرفصتهم" لعلي أقف على الحكمة الكامنة من ورائها ثم واصلت التوغل في صفوفهم متفرسا في وجوههم فردا فردا... ويا ليتني ما فعلت! لقد أمضيت وقتا طويلا... خلته سنوات في حياة سابقة.. وأنا أخاطب رؤوسا أشبه بالآدمية حتى اكتشفت كم كنت واهما.. كانت مجرد رؤوس

جوفاء ذاهلة... جماجم متلاثلة العيون.. مكمنه الأفواه بلا آذان ولا عقول.
تراجعت الى الوراء بحذر وألقيت نظرة أخيرة على هؤلاء التعساء وفجأة
تذكرت أشباها لهم كأنها نسخا منهم خلتهم من نسلهم وعشيرتهم لولا
أن هؤلاء الذين أمامي مجرد جمهرة من البكم بلا أفواه يتكلمون بها ولا
آذان يسمعون بها. أما أولئك الذين فوق السطح فكانوا مجرد أفواه
تمضغ وتتشدق وعندما تشبع أو تكاد...تنطلق في ثرثرة بلا نهاية. كانت
آذانهم هي نقطة قوتهم وأثمن حواسهم وبعدها العيون- كلاهما تم
تطوريهما وتطويعهما في العصر التكنولوجي الخاطف-الذي سبق
الكارثة- ليكونا حصريا عبارة عن "جاساسات" ساهرة على خدمة مصالح
الأخطبوط ومقاولته ذات المنشآت والمخازن و"المسرعات" الحصرية.

(7)

معسكرات المدينة الفاضلة

على امتداد سرداب الطفولة كنت أسكن في عشوائية من البيوت المتلاصقة في قاع أسفل المدينة يطلق عليها سكانها تندرا اسم "الحفرة" ما إن يسكنه أحدهم إلا وينتابه إحساس فظيع بأنه قد دفن نفسه قبل الأوان أو يوشك أن يكون. كانت بالفعل أشبه بالقبور الجماعية المخصصة للأحياء-الأموات المزمع أن يتحول الناجون منهم إلى نوع من "الزومبي" الذين يخضعون للاختبار قبل وضعهم رهن إشارة المقاول عبر-الكونية. لذلك كان عجيبا صمود السكان الأولين لهذا التجمع أمام كل عوامل الإفناء بل تمكنوا من إنجاب أعدادا "مخيفة" من الأبناء والبنات بمعدل لا يقل عن عشرة رؤوس للأسرة الواحدة-دون إحصاء الوفيات المبكرة- الأمر الذي يفسر نوع النشاطات الموازية خارج أوقات العمل. كان "دوارا" سيء السمعة في عرف السلطة مقارنة مع التجمعات السكنية المجاورة التي كان أغلبها مطواعا أكثر للهيمنة الإدارية والأمنية في تلك الفترة البئيسة من بداية النهاية والتي كان فيها

القتل بسبب الهوية الثقافية والفكرية والسياسية هو الشغل الشاغل للوكيل الخرطومى الفرعى للمقاولة قبل أن يبدأ إغراق "الحفرة" بالمخدرات المختلفة واستقطاب قيدومى وعتاة مجرميها ومفسيديها كحراس للمعبد وجواسيس لأذنانب الوكيل. قبل ذلك حظى "الدوار" باستقلالية واسعة إزاء السلطة المركزية وكان شبابه هم الذين يديرون شؤونه الحياتية والأمنية بالخصوص. وفي غياب تام لأدنى نشاط ثقافى أو اجتماعى كان النشاط السائد إلى جوار "الإنجاب" والتجارة العشوائية يقتصر على النشاط الإجرامى الذى يستهدف الأعراب أكثر مما يستهدف أبناء الحي وسكانه. وكانت تنشب بين الفينة والأخرى معارك ضارية بالحجارة والهرافات والأسلحة البيضاء بين فتيان الحي وفتيان الاحياء المجاورة المنتشرة فى التلال السكنية العشوائية المحيطة به مثل تجمع "الغطيط" ودوار "الثوم" وكانت المواجهات عادة ما تخلف أعدادا من الجرحى والمعطوبين. كما كانت ترتكب خلال السنة عدد من جرائم القتل والإغتصاب والإختطاف تجعل الأسر المسالمة تتفوق أكثر فى ملاحقتها وبيوتاتها ضارعة من الله أن يقيها شر هذه المخاطر المحدقة. أما غارات رجال الشرطة الدورية على الحي فكانت تقابلها غارات مضادة من أبناء الحي على ممثلى السلطة المهاجمين مما يخلق الحدث الرئيسى الذى تتناقله الألسن لمدة طويلة. فى حمى هذه الأحداث كنت قد بدأت أتوقع نهاية العالم فى أقرب وقت وهو اعتقاد عززته الكتب

وشرائط "الكاسيت" التي أخذت ألتهمها التهاما لتسليح نفسي وإعدادها لتلك النهاية الوشيكة. كانت حدود العالم بالنسبة لي آنذاك لا تتجاوز حفرة الزومبي التي نقطن فيها وبعض التلال المجاورة التي تلتصق بها بيوت قصديره وقصبية وترابية وإسمنتية على السواء؛ بالإضافة إلى جغرافية مبهمة تختلط فيها تضاريس سكان السطح مع كائنات الجوف.

ظل الدخان المزمّن يتصاعد بصفة شبه يومية من "الزباله" الضخمة التي تحولت عبر السنين إلى معلمة تضاريسية قائمة الذات بفعل تراكم النفايات والمخلفات البشرية المختلفة مكونة تلا قائما بذاته تشكل محطة استقطاب لأطفال الحي لا يزاحمهم فيها سوى الحيوانات المختلفة من كلاب وقطط وجرذان ودواب. كانت تلك المزبله هي حديقتنا الخلفية المفضلة للعب وممارسة شقاوات الطفولة المنسية والمغتصبة تحت سحائب الدخان الكثيف الذي كان يوحي بأن الحي رابض على بركان ناشط وكنا نخاله جزءا أصيلا من البيئه الطبيعية المحيطة بالحي. أما أنا فقد كنت اعتبره ببساطة مقدمة لآية الدخان القادمة وعلامة من علامات آخر الزمان! لم يكن يتوفر الدوار سوى على شارع وحيد يحمل إسما غريبا ومتناقضا مع واقع الحال وهو شارع "السعادة"! بينما كان خلوه من أي مظهر من مظاهر الخضرة الطبيعية من أشجار ونباتات هي أهم سماته. لم يكن ثمة إلا الإسمنت والأحجار

بمختلف الأحجام ناهيك عن الغبار والأوحال التي كانت تحول حياتنا وقت المطر إلى جحيم لا يطاق وإن كان لا يمنعنا من ممارسة رياضة حصرية إجبارية تسمى رياضة التزحلق على الأوحال. وكانت تتفرع عن الشارع الفريد مئات الأزقة الملتوية في كل اتجاه على شكل متاهات يسهل التوهان فيها. و"الدوار" يجثم على هضبتين وهو بدوره يوجد أسفل هضبة أعلى منه ينحدر عبرها الشارع الفريد مثل أفعى جامعة. كما كانت تحيط به هضاب شتى تفصل بينها منحدرات وأودية وتجويفات تضيء على تضاريسه مشهدا سوراليا. وكانت معظم المنازل شبه عشوائية تلتصق ببعضها البعض وبظهر الهضبة التصاق حشرة القراد بظهور الكلاب في هندسة معمارية عجائبية تستعصي على أمهر المهندسين والمعماريين. وكان الشارع ينتهي فجأة عند حافة شبه حادة الزاوية فكنا نضطر للتدحرج عبرها مثل الكرات كلما أردنا التوجه صوب النهر المجاور. لم يكن لأطفال الحي مجالات حقيقية للترفيه سوى المزبلة أو الجولات التي اعتدنا القيام بها في المناطق الزراعية المحيطة بجنبت الوادي أو بعض الكهوف والمغاور المندسة في التلال المحيطة والتي كانت تغذي خيالنا الطفولي بقصص الأشباح وسكان العوالم الجوفية المتربصة. حدث كل هذا ولما أتجاوز عتبة العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. ومرت السنون وغادرت الحي دون أن تغادرني صور

وأشباح الماضي وذكريات مراتع الصبا... كانت تزورني في أحلامي وتؤثث
عالمي الآخر باستمرار.

وها هو ركب الذكريات يعود اليوم من جديد منهدماً بسيل من الخيالات
والوقائع والرؤى يتقدمها ذلك الإحساس الفطري القوي الذي كان يصور
لي العالم رهينة لمقاولة كونية سرية مهيمنة على المقدرات ومنتسلطة
على الناس والطبيعة.. وأن تحالف المال والسلطة مع القوى الخفية لا
يتوقف عند حدود الإستغلال والإستحواذ بل يتعداه إلى ما هو أدهى
وأخطر!

الأخطبوط زيطا

لم تعد هنالك من دول صغرى وأخرى كبرى في العهد الجديد.. بل لم يبق من وجود لذلك النظام القديم المسمى دولة أو سيادة ولا ثمة حدود. أصبح الساكنة بلا هويات أو أعراق وتوحدت الأجناس والألوان والأذواق! لقد اندمج الكل في بوتقة واحدة تحت رحمة السلطة المركزية الخفية والناعمة للمقاولة عبر-الكونية "زيتا" التي مدت أذرعها وخراطيمها الأخطبوطية في كل بقاع الأرض... سطحها وجوفها وفضائها.. كانت لها فروع في مختلف الجهات يشرف عليها وكلاء يتم انتقاؤهم بعناية حتى ما قبل الولادة.. من خلال نطف مهيئة ومعدلة بدقة الهندسة الوراثية. وكانت مهمتهم محددة في شطف الطاقات الحيوية الفطرية وتأمين أعداد القطعان وإعداد القرابين الضرورية لحياة المقاولة وإرسال التخزينات الضرورية لملء شرايين المنشآت والمخازن والمسرعات الحصرية المنتشرة في البنيات تحت-الأرضية. لا أحد يعرف على وجه الدقة التاريخ الحقيقي للأخطبوط ولا مكانه الحقيقي أو أصله الحقيقي ولو أن الكتب والحضارات القديمة كلها تحدثت عنه وإن ظلت المعلومات متضاربة. لكن بصماته كانت غالباً ما تظهر في المنعطفات الحاسمة في تاريخ الجوف الذي كان يتخذه مركز عملياته النوعية. وكانت له خراطيم ممتدة من أعماق الجوف إلى مختلف وكالاته المنتشرة عبر الجهات الأربع للسطح! أما أهم مشاريع الأخطبوط -ذي السبعة رؤوس- التي رصد لها

موارده الهائلة فكانت ما يسمى بسجون ومعسكرات العهد الجديد وخصصت حصريا لألذ أعداءه وأعداء المنظومة "المقدسة". ومن هم ياترى هؤلاء إن لم يكونوا هم أنفسهم الفطريون المجاذيب؟ إنهم الطرائد المفضلة للمجتمعات الجديدة. كانت المحاكم بعدد المعسكرات بل مرتبطة بها في كل حي وقرية ومدينة جوفية تحت أنفاق إمبراطورية "زيتا". وكانت حقا محاكم عادلة تجري جلساتها وفق شرائع المدائن ودساتيرها المقدسة، وكانت الجرائم "غير المرتكبة" والذنوب "غير المقترفة" والتهم "بعدم الذنب" هي العناصر القانونية الصلبة التي يعتمد عليها كقرائن وذرائع للإعتقال والمحاكمة ثم السجن. أليس بعد هذا العدل عدل؟ كان الدستور السائد في كل مدينة من مدائن الجوف منذ دخول عصر المنظومة "المصفوفية" الجديدة للكينونات المهجنة واندماجها في بوتقة فيدرالية كونية واحدة، هو حصول جميع الساكنة.. الأصلية منها والمقيمة.. المهاجرة أو المؤقتة على الحرية المطلقة والحصانة التامة في اقتراح ما يشاءون من أفعال وفق أهواءهم وأمزجتهم شرط الإلتزام بأداء الضرائب الأسبوعية والشهرية والسنوية المختلفة وتسمى بضرائب العيش الرغيد ضرائب الحرص على الحياة. ليس هذا فحسب بل كانت هنالك دوريات رسمية للشرطة وأخرى غير رسمية اجتماعية تطوعية تقوم بمراقبة وإحصاء أنفاس وأفعال وسلوكيات الساكنة "الأليفة". وطبعا كل ذلك في مناخ من الحرية

والديموقراطية والمساواة الشاملة. وهو مناخ يتيح للجميع اقتراف أكبر قدر من الأفعال البشرية البهيمية والغريزية من دون قيود أو شروط، إنما كانت هناك مع ذلك أعراف شكلية تؤخذ بعين الإعتبار لضمان السير العادي لمنظومة الأخطبوط، فقد كانت هناك حدود دنيا وقصى يومية واسبوعية وأخرى شهرية لهذه الممارسات تؤمن للرعية المحافظة على حسن الرعي والانتماء ضمن متلازمة الحقوق والواجبات. كان من الضروري على الفرد الصالح ألا يتجاوز نصيبه من السرقات والنهب مثلا نسبة معينة ومحددة مسبقا تضمن له القدرة على الوفاء بالتزاماته الضريبية وسداد نفقاته الشخصية والعائلية، وكان مسموحا له أن يستعمل أرقى طرق المكر والخداع في النصب والاحتيال خلال معاملاته التجارية والإدارية والإجتماعية. أما الكذب البواح والبهتان وشهادة الزور وخيانة الأمانة وغيرها من الخيانات فقد أصبحت مشاعا ومن بديهيات التحضر والالمنية وطريق سريع للتزقي الاجتماعي والاقتصادي يفسح لأصحابه مجال الصعود الى مصاف النخبة في قمة الهرم الأخطبوطي. وكانت عمليات السطو والنهب مقننة ومنتظمة في إطار شركات وجمعيات ونقابات وأحزاب وتعاونيات وأخويات تستمد شرعيتها وسلطتها ودعمها من النظام السائد. وعلى عكس الأفراد كان مباحا للشركات المجهولة-المعلومة والمؤسسات الظاهرة-الخفية أن تسطو على أكبر قدر ممكن من الموارد الأساسية للقطيع يقتطع منه جزء مهم

يدفع كهبة لفائدة المصفوفة.. أما دور العلماء والأطباء بالخصوص فكان حيويا مثل المساهمة في الرفع من أعداد المرضى والمصابين بالأوبئة المزمنة والفتاكة لضمان ملء المستشفيات والمصحات التي كانت توجد بدورها قرب المعسكرات والمحاكم. كان لكل مستشفى الصلاحية في الرفع أو التحكم في عدد ضحاياه وفق نسبة معينة يتم تحديدها مع كتابات المنظومة ووكالاتها في التخطيط الإستراتيجي العبر-كوبي. بالنسبة للقراصنة واللصوص "المقننين" من كبار التجار ورجال الأعمال الذين كان لهم أيضا دور بارز داخل المنظومة يتمثل في الرفع من أثمان المواد الاستهلاكية الغذائية منها والخدمية لخلق مناخ عادل ونشط من المضاربات والمراهنات مساهمة في ازدهار الاقتصاد. كما كان كبار المزارعين ومساعدتهم يشرفون على التلويث الممنهج للبذور والاعلاف الخاصة بالحيوانات والتسميم التدريجي للمياه والمواد الغذائية والمزروعات المختلفة كل ذلك بشكل مدروس يروم الحفاظ على حياة الناس والبهائم لكن فقط في حدود إبقائهم تحت رحمة الأمراض والأوبئة والافات المستديمة. مساهمة في إنجاح المخطط الكوبي الحضاري الرفيع. تلك كانت أهم العناوين الكبرى لإنجازات المدينة الفاضلة في العصر الأخير من الدهر العتيق في ظل حضارة متفتحة ومتهتكة حرة ومشركة على مصراعيها للمنافسة والمضاربة والمراهنة.

أما النظام السياسي للمرحلة فأوشك أن يقترب من الكمال سعياً نحو ترسيخ القيم والأسس الأخلاقية لهذه المدينة الأخطبوطية الفاضلة.. فقد كان هنالك نوعان من التنظيمات الكونفدرالية يتناوبان ويتقاسمان كل شيء.. الأول هو تحالف الحركات الديموقراطية التوتاليتارية البورجوازية الدستورية البراغماتية الليبرالية الأوليغارشية الميكيفيلية الشيوقراطية الجمهورية النخبوية السايكوباتية اليمينية الإنتهازية المحافظة. أما التنظيم الثاني فلم يكن سوى غريمه وقسيمه في نهب الثروات وتأجيج الثورات وهو تكتل الحركات الإصلاحية التقدمية الإشتراكية الإنفصامية الشيوعية العلمانية الديماغوجية الشعبوية البروليتارية السوسيوباتية اليسارية الوصلية..... وكانت تتفرع عنهما لجان تضليلية وتنويمية متخصصة من أبرز مهامها تأطير القطاع الواسع من القطيع وإعداد "كيادر" المهرجين المتشقلين والحواة والسحرة النطاطين لتحديات المرحلة الحاسمة التي باتت على الأبواب في هذا العهد الجديد من مغرب الحضارة الأبهى.

بعدها بات من الصعب العثور على (مجرمين) مخالفين للمنظومة ومصالحها ممن يستحقون وضعهم وراء الأقفاص الحديدية المكهربة للمعسكرات الجاهزة. وصار أغلب الرعايا خاضعين وراضين بل وانضموا إلى مقدمة المتهافتين على تطبيق بنود الدستور الجديد بهمة وحماس...تفتقت عبقرية المستشارين والمشرعين ومهندسي المقابلة "زيتا" على حلول جهنمية استمدوها من القوانين المتقدمة لحضارات حلفاءهم من الأبعاد الكونية الأخرى الموازية. كانت المعادلة بسيطة أطلقوا عليها مصطلح (المفهوم الإرتدادي العكسي للقيم العتيقة). وتقتضي باعتبار من لا يفسد (أي لا يسرق ولا يزور ولا يكذب ولا يخون الأمانة) ولو مرة في اليوم أو الأسبوع إلا ويتوصل بتنبيهات وتحذيرات رسمية من طرف الجمعيات والأخويات المحلية أولا وبعد ذلك من لجان اليقظة والمراقبة وأخيرا من طرف الأجهزة الرسمية. فإذا حدث ولم (يقترف ما من شأنه) على امتداد شهر كامل كان يتم اعتقاله فورا ويقدم للمحاكمة ثم يسجن بتهمة عدم ارتكاب (نصيبه الدستوري) من الجرائم المنصوص عليها في الشريعة أو الشريعة المقدسة (لا فرق). في بداية الأمر وطيلة الأسابيع الأولى من تنزيل الدستور الجديد تراكمت الإنذارات والتحذيرات التي توصل بها السكان الفطريون العاديون الذين بدا وكأنهم لم يستوعبوا جيدا مفاهيم دستور "الشريعة" ومستلزماتها

ولكن بعد مضي الشهر الأول تحولت التنبيهات الى اعتقالات بالجملة ثم محاكمات وسجون. وتواصلت الحملات وشهادات الزور (التي رسمت قانونيا) وكانت تطال كل من يقول (لا). كانت كلمة لا هي الدليل الملموس على الرفض والمعارضة. كانت هي ثاني أكبر خطر على الأمن القومي والإجتماعي للمنظومة بعد جريمة التفكير الشنيعة. ثم تحولت إلى تهمة إضافية تلصق بأصحاب اللاءات واستخدام العقول مثل تهمة الإرعاب (وهي شبيهة بمثيلتها التي في السطح الموازي التي تدعى الإرهاب)، وكيف لا وهؤلاء باتوا يربعون أقرباءهم وجيرانهم بسلوكاتهم الراضية للغش والتدليس والتزوير والخداع كمنهج يومي للعيش؟ هكذا اكتظت السجون بمختلف الفئات من المستوطنين صغارا وكبارا، إناثا وذكورا وأشباه الإناث والذكور. فكان لا بد من تنظيم حملات واعي ومراجعة واسعة النطاق من خلال وسائل الإعلام والإتصال المختلفة الفضائية منها والتحت-أرضية والعبير-كونية لإقناع الكائنات وتوعيتهم بدورهم الحضاري الجديد الذي أصبح منوطا بهم في تلك المرحلة المصيرية. كانت استجابة الفطريين قليلة لتلك الحملات والتعليمات لأنهم كانوا مجبولين على ارتكاب الجرائم بعدم ارتكابها وعلى اقرار الشنائع برفضها.. فأصبح مفروضا على نظام المصفوفة إنشاء برامج خاصة لتأهيل هؤلاء وإجبارهم على تنفيذ بنود الدستور المقدس الرامي لترسيخ مفاهيم الحرية والمساواة في فعل كل شيء بلا غضاضة وتجنب

الإنسحاب من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية المساعدة على ارتكاب الجح والجرائم المباحة. استغرق الأمر سنوات قبل أن تبدأ الخلائق والكينونات المفطورة على (عدم الإرتكاب) و(اللاقتراف) في استيعاب الحقائق الجديدة فشرعت في الإقتداء بالآخرين خاصة منهم المهجنين النشيطين، فتحولوا شيئاً فشيئاً الى لصوص وقطاع طرق وفسقة وخونة وأفاقين. عندها فقط بدأت السجون تخلوا والمحاكم تغلق وقل عدد المعتقلين والمتهمين بشكل كبير، فيما ارتفعت أعداد الضحايا الى أرقام مهولة تفوق مخطط المنظومة الكونية نفسها، وبدأ النمط الحضاري الجديد يتهدد الكون الجوفي بالإنتهاء. بعدما أصبح عدد المقابر وتكاليفها يفوق أعداد ساكنة المدائن بأضعاف مضاعفة. هذه المرة سنت تعديلات دستورية استعجالية للتقليص من التزامات الرعايا والجمعيات والأحزاب إزاء المنظومة وأصبحت واجباتهم تنحصر في نسب أقل من الجرائم وعمليات السطو والنهب والترويع، وارتفع وعي الساكنة بالأمر وازداد احترامهم للقوانين المعدلة التي اقتصرت وظائف القتل العمد وغير العمد فيها وكذا التعذيب السري والعلني والسحل والاعتصاب والتنكيل لأجهزة الشرطة والجيش والمخابرات فقط. أما الساكنة الأليفة فقد سمح لأفرادها بتبادل الضرب والجرح والإغتصاب والنهب ولكن وفق "قانون الغابة المصفوفة المعدلة" فقط. أما الفئة الدنيا المستضعفة من فئة الصراصير النطاطة والجرذان والماعز الأليف فقد

منحوها حقوقا نوعية جديدة مثل الرفع من كمية السب والشتم واللعن على حاكميها والأوصياء عليها وتبادل البصق على بعضها البعض والتمخض والتمخيم المباح في الاماكن العامة. هكذا صار كل ما يتعلق بالقيم والأخلاق والمعتقدات القديمة والقيود العائلية والاجتماعية والموروثات الروحية من المحرمات القصوى ولا تمارس إلا خفية في حدود ضيقة غالبا فردية واستثنائية (لأن الجهر بها كان أيضا من موجبات التنكيل والمحاكمة والسجن). ومن ثمة لم يعد للعلاقات الاجتماعية والمواثيق والأعراف القديمة مثل الزواج والأبوة والأمومة والأخوة أدنى اعتبار خصوصا بعد سيطرة الأوصياء من المهجنين من ذوي الجذور الخبيثة على زمام الأمور داخل التجمعات العائلية المستحدثة. من جانب آخر أبيضحت لكل الكينونات حقوق اختيار الشريك الأنسب دون تمييز بين سطحيين أو جوفيين. سديميين كانوا أم هلامييين بشريين أم مبلسين. كان الكل يسبح في جوف المنظومة المصفوفية المقدسة في تناغم مع باقي الحضارات الموازية وضمنها الحضارة السفلية الحليفة.

في آخر عهدي بتلك الأصقاع السحيقة لمست إرهابات سخط عارم ونوبات مفاجئة من الوعي اجتاحت قطاعات واسعة من القطعان دفعها إلى العزوف عن المراعي والإلتفاف حول حلقات التفكير والتدبر.. لقد أصابتها لعنة فيروس العصر الفتاك أخيرا وهاهي تفكر جديا في إنشاء حركات سرية وجوفية وأخويات وحركات تنويرية ("نورانية" في رأي

البعض و"ظلامية" في رأي البعض الآخر) كان الهدف منها تسليط الأشعة السينية الرنينية والقهر-مغناطيسية مع ومضات نانوية ذرية على كل العتبات الجوفية.

ي

استيقظ من نجا من الناس من مراقدهم عقب ما بات يعرف بغزوة الطيور السوداء الرهيبة التي خلفت وراءها ملايين القتلى والمصابين والصرعى والمعتوهين. لا أحد منهم يتذكر على وجه التدقيق كيف نام ليلته تلك.. خصوصا بعدما شقت رؤوسهم صيحة مدوية من السماء أفقدتهم وعيهم وصوابهم، فسقطوا مغشيا عليهم بين صريع ومصعوق. وهاهي البقية منهم تستيقظ استعداد للجولة الثانية من العذاب. في ذلك الصبح الكئيب، وبدلا من السحب، جاءت السماء بدخان هائل مبيّن أخذ يغشى كل الأنحاء ويغشى الناس في كل مكان. وانخرط ما تبقى من المؤمنين والفطريين في صلوات وأدعية من أعماق الجوف الأرضي الذي كانوا ينتمون اليه وانضم إليهم اللادينيون والملحدون والدهريون في صمت وخشوع بعدما أدركوا هذه المرة أن الأمر جسيم وهائل ولا مجال فيه للعبث والتلاعب أو المساومة. كان الدخان يزداد كثافة والناس يزدادون اختناقا وتوسلا، وارتفعت نسبة الوفيات في كل الأقطار والأمصار. وأخيرا حل الليل البهيم. لكن سرعان ما أعقبه الصبح الأليم واشتد القحط والجوع فأخذ الناجون يأكلون موتاهم ويدفنونهم في بطونهم فيزدادون وهنا على وهن. وفي خضم الأهوال صار البعض منهم يستعيدون في أذهانهم مشاهد مماثلة كانت مجرد تمثيلات وأفلام سينمائية اتخذوها في حياتهم أدوات للترفيه والتسلية والفرجة وهام

اليوم يتحولون الى موضوع لفرجة كونية قاسية. انهم الآن محشورون في أدوار واقعية كانوا فقط يمثلونها أو يتفرجون عليها ويستمتعون بها طيلة سنوات لهوهم وغفلتهم. فكيف غابت عنهم العبرة فيما كانوا فيه يتفرجون؟ صار الناس في مختلف البقاع يفقدون أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ومن جملتهم قوم اعتادوا على رؤية المناكر والمظالم دون أن يرف لهم جفن أو يرق لهم قلب، وآخرون ظلوا يصمون آذانهم عن سماع أصوات المعذبين في الأرض والمظلومين دون أن تتحرك في نفوسهم حمية ولا شفقة. الآن جاء عليهم الدور. تهباً لبعضهم أنهم يسمعون أصواتا تسائلهم..

**حتى لو لم تكن قد نهلت مما تيسر من الكتاب أما كان أجدى
لو استذكرت على الأقل سير الأولين!**

وحلت ليلة أخرى أشد سوادا وقسوة وأعقبها صبح زؤام. ضاقت خلاله الأرض بالناس بما رحبت واشتد الفزع، وكان الذين لم يفقدوا أبصارهم بعد يحاولون رفع رؤوسهم المنهكة نحو الأعلى فلا يميزون شيئا غير الدخان. وانتشرت الحرائق في كل مكان، وبدأت تطارد الناس شرقا وغربا وهو يفرون لا يلوون على شئء تاركين منازلهم وأهليهم وأطفالهم -فهذه ليست مشاهد سينمائية تحدث بالمقاس على مزاج المخرج بل واقع سفلي لا يرتفع يقول فيه كل شخص نفسي نفسي- عم الإرتباك الشديد

كل الصفوف وتعطلت حركة المتاجر والمصانع والمنتديات. أمسى الناس حيارى مذهولين وملاً الدخان أنحاء الارض ما بين المشرق والمغرب وساد لأسابيع طويلة مرت كأنها الدهر. ظل خلالها حال الفاسدين والمفسدين والظالمين والمجرمين كالسكارى وكان الدخان يدخل من فواههم ومناخيرهم ويخرج من آذانهم وأدبارهم. ولم ينج إلا القليل، واستمر الهياج والهرج بين الناس وبدأت الحيوانات من حولهم تخاطبهم وتتحدث بلغاتهم، موبخة إياهم على تفريطهم وعبثيتهم ولامبالاتهم إزاء العلامات والتحذيرات المتوالية. واختلطت رؤوس الناس المشوية بالدخان بالأشجار المتساقطة الأوراق المتشابكة الفروع لتشكل لوحة مهولة للناظرين، وظل الكل يفر في كل اتجاه تطاردهم الرياح وألسنة النيران ونقرات طيور الموت السوداء ولسعات مختلفات من كل أصناف الحشرات. كان عذاباً لا يطاق، استمر شهراً أو يزيد.

وأخيراً بدأ الدخان في الإنسحاب التدريجي. وأخذت الحياة تسترد إيقاعها لكن ببطء شديد، رافعة الستار عن أعداد هائلة من الموتى والمشوهين والمعتوهين والمعطوبين.

!

أخذت البشرية تستأنف دورتها الجديدة مع الحياة البدائية، ساعية إلى تضميد جراحاتها الهائلة، وتقهقرت الحضارة إلى ما قبل القرون الوسطى. اختفى كل أثر للتكنولوجيا والعلوم المتقدمة الأخرى. لقد عاد الإنسان إلى عصره الحجري اليدوي محاولا استعادة زمام سيطرته على بيئته وتصريف شؤون حياته اليومية. لكن لم يمض سوى وقت قصير، حتى نشبت النزاعات والحروب بين القبائل والأمم في كل مكان. ومرة أخرى بدأ القوي يستقوي على الضعيف والحاكم على المحكوم والغني ينهب الفقير تماما كما كان يحصل في الحضارات السابقة ولم تأخذ البشرية أدنى عبرة مما حدث لها من قبل!

لم يطل الوقت كثيرا هذه المرة فقد استيقظ الناس ذات ليلة من منامهم فزعين مهرولين على صوت فرقعة هائلة تخترق الأرجاء ثم شقت صيحة مدوية جدار السماء فصاحت دابة غريبة من دواب الأرض كانت مجهولة من طرف الناس:

**يا إلهي! هل جاء أخيرا من سيطرق طرقته الأخيرة على
الكون؟ كان الله في عون من بقي من بني الإنسان ومن يليهم
من كائنات السطح والجوف!**

كراج ما بعد منتصف الليل.. (تتمة أخيرة)

؟

كانت الظلمة طاغية، ووجدت نفسي مطروحا أرضا وسط الغبار والنفائات وقوارير تنبعث منها روائح بقايا مشروبات كحولية، فيما ملأت خياشيمي روائح البول ونكهة أعقاب سجائر. وفي زاوية بعيدة لمحت ضوء أحمر خافتا ينبعث من خلاله وميض متقطع. وقفت بصعوبة وأنا أشعر بآلام متفرقة في ظهري وذراعي وصداع شديد في رأسي، وعندما اقتربت من مصدر الضوء فهمت كل شيء... بل كل ما حصل. لقد كنت في الطبقة السفلية السابعة من الكراج بعدما استيقظت لتوي من غيبوبة مؤقتة تسبب فيها انزلاقي المفاجئ خلال نزولي من الطبقة الأولى لتفقد السيارة العجائبية الوحيدة التي كانت ما تزال ترض في المرآب. التفت أبحث بعيني المضببتين عن تلك السيارة الملعونة فتهيأ لي أني أرى شيئاً عجيباً... لقد كان ركابها السبعة يشغلون مقاعدها الأمامية والخلفية وهم على نفس هيئتهم الغريبة. كانوا يلبسون أقنعة تنكرية أصررت على تفحصها هذه المرة.. يا إلهي إنها ليست أقنعة بل وجوه مسوخ مرعبة.. كان هنالك وجه سحلية عملاقة تتطلع نحوي باهتمام فسارعت الى تحويل نظري صوب الكائنات الأخرى وأنا أشعر بحالة من الإنكار وعدم التصديق... لا شك أنني أتوهم الأشياء فقط تحت تأثير سقوطي المتدحرج. حدقت في الآخرين ويا لهول ما رأيت.. لم يكن وهما هذه المرة! لقد كانت سحنات وجوههم أكثر بشاعة وفظاعة إنني الآن

وسط موقف لا يمكن أن يخطر بالبال هيئات آدمية تحمل وجوه غير
آدمية ونظراتها ممتلئة بالشر والوعيد. أصبحت الآن في مواجهة جرد
عملاق متصلص النظرات ووجه صرصور عنكبوتي بنظرات حادة تشع
مكرا ودهاء. ومن ورائهم كانت تتطلع نحوي أربعة مسوخ تشبه العقارب
والأفاعي كل واحدة منها أبشع من الأخرى...كانت لحظة خاطفة مرت
علي كالدهر. حاولت مداراة رعبي ساحبا نظراتي المذعورة الى الأعلى
صوب الوميض الأحمر المتقطع فتناهى الى سمعي هسيس مريب
فاختلست نظرة خاطفة لآتفاجاً برأس الصرصور وهو يهمس للآخرين
قائلاً... **اتركوه الآن. يبدو أنه ما يزال تحت تأثير الصدمة وغير مستعد
لتقبل التغييرات الطارئة من حوله! قريباً سأطرق باب وحدته
وسأسحبه معي الى أسفل سافلين!**

بادرت إلى إغلاق عيني ووضعت أصابعي على أذني مستعيذا بالله ثم
حبست أنفاسي وسبحت في بحر من المناجاة لم استفق منه إلا وقد عاد
إلي سابق هدوئي... شعرت باطمئنان داخلي عميق. استجمعت شجاعتي
وصوبت نظرات واثقة ومتحدية نحو السيارة العجائبية فلم أر في مكانها
سوى القناني الكحولية الفارغة وآثار التبول على الأعمدة المنزوية
المخفية عن كاميرات المراقبة تلك التي ينبعث منها ذاك الوميض
الأحمر المتقطع والتي كان يحلو لي أن أدعوها بالعين التي "ترى وتراقب
كل شيء". لا شك أن هذه العين قد سجلت كل ما وقع لي في هذه الليلة

الميلادية الفريدة! لم أكن واثقا مما سجلته بالضبط طيلة غيايبي أو غيبوتي وانزلاقي الموازي نحو "الجوف". قررت أخيرا أن أعود أدراجي صعودا الى فوق مستعينا بمصباح يدوي تذكرت أني أحمله معي في جيبي. شرعت في رحلة الصعود الطويلة والمرهقة عبر سبع طبقات سفلية من هذا الكراج الغريب الذي كنت بالكاد أصدق أنني من مستخدمي... وأن هذا ليس سوى يومي الأول من العمل! كان الظلام ما يزال دامسا والعين الحمراء المتقطعة تومض نحوي بومضاتها المريبة كلما تقابلنا عند كل منعطف من منعطفات الصعود المرهق استحضرت عندها لعنة سيزيف الأسطورية العبثية فصدرت بالرغم مني تنهيدة عميقة... لم يكن قد مضى على مجيئي الى هذا العالم الغامض سوى أيام معدودة فكأنني -لأمر أجهله- قد انتقلت من كوكب إلى آخر دون حاجة إلى مركبة فضائية أو صحن طائر ولا حتى غواصة جوفية! حتى أنني اكتشفت في خضم غيبوتي الجسرية الملغزة أن الأرض التي طالما تغنيت بكرويتها مع سائر الجوقة السطحية ربما ليست كذلك. أو لم تعد كذلك! فكيف لي بالمحافظة على سابق اعتقادي؟ هل يجوز أن أكون قد خدعت طوال هذه السنوات الخداعات؟ وهل بات علي الآن الانضمام إلى جوقة المسطحين؟

لكن لدي مشكلة واحدة بهذا الخصوص فأنا لم أعد أتمي إلى ذلك السطح! لعلي الآن في حكم الجوفيين المجوفين! ثم ماذا عن أولئك

القائلين بأنها "مفلطحة"؟ يا للحيرة ربما سقطتي المريعة في هذا الكراج الملعون هي التي أثرت علي وعلى طريقة تفكيري؟! لا شك أنني ما زلت أهذي بعد كل هذا الذي عشته ورأيتُه أو "تخيلته". ومهما يكن من أمر وسواء كان ما عشته رحلة؟ أم غيبوبة؟ أم كابوسا وجوديا؟ أم رؤية جوفية فإنها مرت علي كسنوات لم أكد أميز فيها بين واقع ولا خيال أو بين ظاهر وباطن.. ومادام الأمر كذلك فما الذي يمنعني من الإنفراد "بنظريتي الخاصة" إذا لم تكن الأرض مكورة ولا مسطحة ولا مفلطحة فهي بالتأكيد "مجمجمة". نعم مجمجمة و "مقممة" لا فرق! وما دليلي؟ إنهم كل أولئك "القماقم" الذين عاشرتهم وعاشتهم في حياتي السابقة على السطح لعلمهم لزالوا يدبون ويتغوطون على سطحها فاغري الافواه في انتظار أن يتحولوا إلى جماجم تملأ جوفها وعندها فقط ربما سيرون ما رأيت! فما همني لو كان قد فات عليهم الأوان!؟

لم أكد أنتهي من هلوساتي هاته حتى سمعت صوتا يتسلل من بين أفكارى ويلح في طلب الكلام فأدركت على الفور أنه ظلي الوقح يعود لمقاطعتي ومماحتي كعادته.. قال لي مصطنعا جدية لا يملكها..

**بقي عليك الآن أن تثبت للبقية أن الأرض مجوفة لكن طبقتها
الأولى "مغوفة"!**

خاتمة

كدت أعتقد -قبل أن افتح عيني للمرة الأخيرة - أنني من القلة التي أفلتت من قبضة الأخطبوط ذي السبعة رؤوس لهذا لم أشعر بالهلع حتى عندما وجدت نفسي عالقا في الكماشة محشورا داخل واحدة من المنشآت الجوفية التي تحتكرها المقاومة المسيطرة على شؤون الكونين في الأرضين السبع. كنت وسط ملايين من الجدائد والصراصير والجرذان المتقافزة في تهافت متسارع.. فيما قطعان الخراف و"الماعز الأليف" ترنو بقربي مطأطة الرؤوس وسط بقية الخلائق الهجينة والكينونات الغامضة الأخرى والكل يرثي مصيره في معسكر الحشر الرهيب.

الوقت آخذ في النفاذ ودائرة الحصار تضيق باستمرار.. غير أنني لا زلت أشعر بمزيج غامض من الاطمئنان واللامبالاة بعدما تفقدت مؤشر ساعتني الذهنية فوجدته ما يزال جامدا-على حالته الأولى- الثالثة بعد منتصف الليل (دائما وأبدا) حسب التوقيت المعياري المتقاطع مع تفاهمات الأكوان! أخيرا أدركت سلامي الداخلي وما عاد يهمني ما سيقع

Hollow Journey

No more small or major states or countries in this New Age UTOPIA. No more "sovereignty" or borders as well! Identities and ethnicities all merged into one melting pot under the hidden soft power of the Trans-Cosmic Enterprise "ZETA", whose arms and Octopus hoses had been extended all over the surface and the hollow! As for the political system of the stage, it is about to attain perfection, seeking to establish the new values of this utopian octopus city. There were two types of confederate organizations alternating and sharing everything. The first was the coalition of bourgeois, totalitarian, constitutional, democratic, pragmatic, liberal, oligarchic, theocratic, Machiavellian, republican, elitist, psychopathic, right-wing conservative opportunist. As for the second organization, it was nothing but its opponent and its partner in plundering wealth and fueling revolutions, which is the grouping of reformist, progressive, socialist, separatist movements, secular communism, demagoguery, proletarian populism, and left-wing sociopathic arrivistic. The stands of the Colosseum were full of energy and enthusiasm. I noticed the front rows were monopolized by the elite of bearers of appearances, followed by the masks and official devilish class of stray dogs and eager hyenas distinguished by their terrifying voices and their grimacing tusks, and behind them was the queue of cross-bred cattle, ravenous donkeys and mules, while the back rows were designated as usual for herds of sheep and "pet goat" while I was sitting among flocks of mutated bouncy cockroaches as myself. We were enjoying the performances of end-time acrobats and circus clowns before the impending ruin.